دكتور عبد الغنى عبود

الله
والإنسان المعاصر

الكتاب الثانى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الاسلام وتحديات العصر

الكتاب الثانى

الله والإنسان المعاصر

تأليف
دكتور عبد الغنى عبود
كلية التربية جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

الطبعـــة الأولى

فبراير ١٩٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

— « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم » (قرآن كريم : النور — ٢٤ : ٣٥) .

* * *

— « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم » (قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٥٥) .

الفهرس

الموضوع — الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

ليست هذه السلسلة سلسلة دينية بالمعنى التقليدى . كما يبدو للوهلة الأولى من عنوانها ، وإن كان الدين الإسلامى يعتبر محورها الأساسى .

ولقد كان الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، بعيداً كل البعد عن الدين ، قريباً كل القرب من العلم الخالص .. فى مجال التربية ، الذى تخصصت فيه ، وحوله تدور قراءاتى ودراساتى ، وما أقوم به من أبحاث .

وصحيح أن الدين ليس حكراً على متخصصين فيه ، كما هو الحال فى الكيمياء والطبيعة والصيدلة والهندسة والأدب واللغة والتربية ، ولكن المتخصصين فيه — بالضرورة — أقدر على العطاء ، وغير المتخصصين فيه لابد أن يكون عطاؤهم أقل ، وبجهد أكبر .

ويعود الدافع إلى إصدار هذه السلسلة إلى سنوات خلت ، حيث كان يضمنا (سمنار) الدراسات العليا بكلية التربية جامعة عين شمس ، وأراد أحد الدارسين تسجيل رسالة عن (التربية الإسلامية) ، يحصل بها على درجة الماجستير فى التربية ، وهالنى رد أحد الزملاء — الأساتذة — عليه — بأنه لايوجد — للأسف — تربية إسلامية .

ولم يكن بين يدى الرد ليلتها على الزميل ، ولا قدرة — بالتالى — على مناصرة الطالب ، ومن ثم أمسكت عن الرد ، حتى يكون بين يدى الدليل .

ورجعت إلى ما كتب عن (التربية الإسلامية) ، فى الكتب والمجلات

العلمية ، فلم أجد فيما كتب متصلا بالتربية الإسلامية سوى .. العنوان ، رغم أن بعض ما قرأته كان لمفكرين إسلاميين .. كبار .

وكان على أن أعتمد على الله وعلى نفسى ، فى التصدى لهذه المغالطة العلمية ، التى يقول بها بعض رجال التربية عن جهل ، ويسكت عنها البعض الآخر عن قصور .

وجمعت المادة العلمية فيما يزيد على عام كامل ، وبدأت أنظم هذه المادة ، وكتبت بالفعل — على أساسها — كتاباً متكاملا عن (الأيديولوجيا والتربية ، فى الإسلام) ، ولم يكن ينقصه سوى أن يدفع إلى المطبعة ، ليرى — بعدها — النور ، ويبث — بعدها — نور الحقيقة فى قلوب الجاهلين بها ، والمتغافلين لها .

ثم عدت إلى نفسى ، وقلت لها : ولكن المسئولية أمام الله أكبر من هذا الجهد الذى بذلته ، فقد كان لابد — فى نظرى — من مزيد من البحث .

وقلت لنفسى أيضاً : ولكن هذا الجهد الذى بذل كبير ، وهو جدير بأن يرى النور .

واستقرت نفسى على أن ألخص هذا الذى كتبته ، فى ستين صفحة ، نشرت تحت نفس العنوان ، فى المجلد الثالث من (الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس) ، الذى صدر مع مطلع سنة ١٩٧٦ .

ثم استقرت — بعد ذلك — على نشر هذا المقال ، مع مقالين آخرين ، ظهرا فى مجلات علمية أخرى ، عن (التربية الإسلامية) ، فى كتاب يصدر قريباً تحت عنوان (مقولات فى التربية الإسلامية)(١) ، نظراً لأن كل

(١) الكتاب تحت الطبع الآن ، وسيرى النور قريبا بإذن الله ، مع تغيير محدود فى العنوان ، ليكون (فى التربية الإسلامية) فقط .

مقال من المقالات الثلاثة ، قد صدر — حيثما صدر — مليئاً بالأخطاء المطبعية ، التي أفسدت المعنى الذى كنت أريده فى بعض المواقف إفساداً .

واستقرت نفسى — قبل ذلك وبعده — على أن أعمق مفهومى عن الإسلام ، وعن (الشخصية القومية الإسلامية) ، فهى المنطلق الحقيقى الحديث — الصادق — عن (التربية الإسلامية) .

ذلك أننا ندرس نظام التربية فى أى مجتمع ، فى ضوء (الشخصية القومية) لذلك المجتمع ، وبدون تلك (الشخصية القومية) ، يكون نظام التربية — فى نظرنا — نحن رجال التربية — معلقاً فى الهواء .

وفى ضوء تلك (الشخصية القومية) ، درست — وتدرس — التربية فى البلاد الرأسمالية عموماً ، وفى كل بلد منها ، كما تدرس التربية فى البلاد الشيوعية عموماً ، وفى كل بلد منها .

وفى ضوئها كذلك ، درست — وتدرس — التربية المسيحية ، والتربية اليهودية .

أما التربية الأسلامية . . فلم تجد حتى الآن — فى حدود علمى — من درسها هذه الدراسة العلمية المنهجية .

ومن ثم كان هناك من يقول، بأنه لا توجد تربية إسلامية ، لأن الشخصية الإسلامية اليوم ، شخصية ، لا هى إلى الإسلام تنتمى ، ولا هى عن الإسلام تعرف الكثير ، ومن ثم صارت تلك الشخصية شراً على الإسلام ، وخطراً عليه ، أكبر من الشر والخطر الذى يستطيعه أعداء الإسلام أنفسهم .

ومن ثم فالشخصية القومية الإسلامية المعاصرة ، لا يمكن أن تكون هى المدخل الصحيح لفهم التربية الإسلامية ، وإنما المدخل الصحيح لها ، هو تلك الشخصية القومية الإسلامية، فى عصور الإسلام الأولى .

ولو عاد المسلمون إلى فهم الإسلام من جديد ، كما يجب أن يفهم ، لعادوا إلى أنفسهم ، وعادت إليهم قوتهم وعزتهم . . وحضارتهم ، خاصة وأن الدراسة التي قمت بها ، أكدت لى أن الإسلام قادر على مواجهة (تحديات العصر) ، وأن المسلمين — بالإسلام — قادرون على مواجهة تلك التحديات ، وأنهم — بدونه — عاجزون .

ومن ثم يكون الهدف من السلسلة . . تربوياً خالصاً .

ولكنه هدف . . دينى أيضاً .

فالمسلمون اليوم ، بفعل عوامل متعددة ، لا يعرف الكثيرون منهم عن الإسلام الكثير ، وهم يعرفون عنه مايعرفه غيرهم لهم ، لا مايجب أن يعرفوه بأنفسهم ، من مصادره الصحيحة : الكتاب والسنة .

بينما هم يعرفون عن النظم والفلسفات المعاصرة . . ذات البريق — الأخاذ — الكثير والكثير . . لأن غيرهم أراد ذلك لهم . . بفعل عوامل متعددة كذلك .

والوظيفة الرئيسية لهذه السلسلة هى : أن تضع الإسلام — بجوانبه المتعددة — وجهاً لوجه — أمام النظم والفلسفات المعاصرة . . لنرى : أيها أقدر على مواجهة تحديات العصر .

وعندما يكتشف المسلم ، أن إسلامه هو القادر على مواجهة تحديات العصر ، وأن الفلسفات والنظم المعاصرة ، إن هى إلا ألوان من العلاج مؤقتة . . مفلسة ، فإنه — لابد — سيعود إلى نفسه ، ويصالح دينه ، ويقرأ عنه ، ويقف على ما فيه . . وقوفه على ما فى الفلسفات المستوردة ، ذات البريق الأخاذ . . الخادع .

وعند هذا الحد ، تقف رسالة السلسلة .

ومن هنا قلت وأصررت، على أنها ليست سلسلة دينية بالمعنى التقليدى .
ومن أراد الدين بالمعنى التقليدى ، فكتبه معروفة ، وكتابه معروفون .
ولكن المسلمين الذين أكتب هذه السلسلة لهم، ليسوا مستعدين منذ البداية؛ لأن يضيعوا وقتاً فى قراءة تلك الكتب الدينية، وفى القراءة لهؤلاء الكتاب المعروفين ، لأن الإسلام - كما فهموه - لا يصح أن يضيعوا فيه وقتاً ، يضيعون أكثر منه فى المذاهب ذات البريق .. الخداع .

وبعد اتضاح (معالم الشخصية القومية) الإسلامية ، مقارنة بمعالم (الشخصيات القومية) الأخرى ، التى نراها فى ظل الأيديولوجيات المعاصرة، من زوايا عديدة .. وذلك خلال هذه السلسلة ، سوف أعود من حيث بدأت ، فألخص ما وصلت إليه ، وأتخذ منه منطلقاً للحديث عن (التربية الإسلامية) .

والجهد الذى يجب أن يبذل فى إعداد هذه السلسلة كبير، والجهد الذى يجب أن يبذل - بعدها - فى الحديث عن (التربية الإسلامية) كبير .. ولكن الهدف الذى تحققه السلسلة ، والدراسة الخاصة بالتربية الإسلامية - بعدها - فى نظرى - أكبر وأعظم ، وفى سبيله تهون الصعاب ، وعلى الله قصد السبيل ؟

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى : جمادى الأولى ١٣٩٦هـ .
— مايــو ١٩٧٦م .

وهذا الكتاب ... الثانى

كم كان تخوفى شديداً ، عندما أقدمت على إصدار هذه السلسلة، وأشهد أننى - رغم اقتناعى بفكرتها وبفائدتها ، واستعدادى لبذل الجهد الكبير الذى أبذله فى سبيل إعدادها وإخراجها على النحو الذى تظهر عليه - كنت متردداً فى إصدارها ، لولا تأييد شديد لمسته من (دار الفكر العربى) ، دفعنى إلى المضى قدماً فى الطريق .

وقد صدر الكتاب الأول منها فى منتصف العام الماضى ، أثناء عطلة صيفية ،أحب أن أقضيها بين أهلى فى القرية .. مبتعداً عن المدينة وزحامها ، وعن العمل ومتاعبه ، وعن الالتزامات وثقلها .. لأعود - بعدها - إلى النشاط الشديد ، الذى يعرفه جيداً كل من يعرفون أحد المشتغلين فى العمل الجامعى ، فى بلد كبلدنا مصر .

ولكن أخبار الاستقبال الطيب لهذا الكتاب الأول ، كما وردت إلى مع مطلع العطلة ، سواء من الأصدقاء الذين قرءوه ، أو من (دار الفكر العربى) — رغم أنه لم يتم الإعلان عن الكتاب فى الصحف ، ولا فى غيرها من وسائل الإعلان - قد قطعت على عطلتى هذا الصيف ، فقد أسرعت إلى البحث عن الكتب التى تتحدث عن (الله) ، سواء فى الديانات السابقة ، وفى الفكر غير الدينى - وكنت قرأت بعضها ، وكان على أن أستكمل المسيرة .

وعكفت الصيف كله على دراسة الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد، والقرآن الكريم ، وتتبع فكرة (الله) فى كل منها .

ثم عدت من العطلة ، لأتمم المسيرة فى القاهرة ، وما أن انتهيت مما بدأت ، حتى بدأت - على بركة الله - أنظم ما جمعت من مادة علمية ، ثم أكتب .

وهذا الكتاب ـ الثانى ـ هو الآخر ـ كالكتاب الأول ـ ليس كتاباً من كتب الفلسفة أو التوحيد أو اللاهوت ، رغم دورانه حول (الله) سبحانه ، لأنى أردت به ـ وبالسلسلة كلها ـ إضافة إلى ما هو بالمكتبة العربية ، لا إعادة صياغة له .

وكتب التوحيد أوما شابهها تفيض بها المكتبة العربية ، ومنها كتب معاصرة ، لأساتذة تخصصوا فى هذا المجال ، ومنها كتب قديمة كثيرة ، فقد فرضت مثل هذه الدراسة نفسها على الفكر الإسلامى دهراً طويلا ، عندما احتك المسلمون ـ بعد سنوات من ظهور الإسلام ـ بالفكر اليونانى ، ثم بالفكر الدينى غير الإسلامى ، وكانت (إيجابية) الإسلام تقتضى التصدى لهذا الفكر بفكر مماثل ، لا بالكبت والإرهاب ، كما تفعل النظـــم المفلسة فى كل زمان ومكان .

ورغم ذلك ، فمحور هذا الكتاب هو (الله) سبحانه ، كما كان محور الكتاب الأول هو (العقيدة الإسلامية) .

إلا أنه ـ كالكتاب الأول ـ لا يتعرض للجانب اللاهوتى أو الفلسفى أو التوحيدى ، إلا بالقدر الذى يمكن أن يوضح به الكتاب ، مدى كمال فكرة (الله) فى الإسلام ، ومدى حاجة الإنسان المعاصر إلى هذا الإله العظيم ـ كما صوره الإسلام ، لأنه ـ بدونه ـ لا بد أن يحس بالضياع ، ويصير الإنسان غير إنسان .

وليس فى الكتاب ، كما يمكن أن يتصور البعض مما قدمت به ، أية مقارنة بين إله المسلمين وآلهة غيرهم ، لأن المقارنة لا تكون إلا بين ندين ، ولم يدر بخلدى ـ لذلك ـ مثل هذه المقارنة ، لأنها ستكون مقارنة بين الكمال المطلق ، وبين الخلل الشديد ، لأن الإله ـ كما هو فى فكر الآخرين ـ مهما بدا سامياً ـ

إنما هو وليد خيال . . لا بد أن يكون سقيماً ، سواء كان هذا الخيال (يخلق) هذا الإله خلقاً ، أو يحرفه عن أفكار دينية سابقة .

وهذا الخيال لا بد أن يكون سقيماً ، لأن الله كما يرضى عنه ضمير الإنسان ويستريح إليه ، ويأتى بنتيجة فى حياته . . . لا بد أن يكون هو الخالق . . . لا المخلوق ، حتى ولو فى الفكر .

فالله فى ضمير المسلم موصوف بما وصف به نفسه سبحانه ، بينما هو موصوف عند الآخرين بما أرادوا أن يصفوه به .

ومن ثم بلغ وصف المسلم لله غاية كماله ، بينما وصف غير المسلم لإلهه ، يحط من هذا الإله أكثر مما يرفع .

والله — فى ضمير المسلم — لذلك — عون للإنسان ، ما كان هذا الإنسان أهلا لهذا العون ، بينما هو عند الآخرين قد يكون إلهاً عيياً عاجزاً ، أو إلهاً متعصباً لشعبه ، أو إلهاً مضطرباً ، لا تعرف له خطاً واضحاً .

والله — فى ضمير الإنسان المسلم — نتيجة لذلك كله — ضرورة تفرضها عليه حياته الراهنة ، لا غنى له فيها بدونها — تماماً كما كان فى كل زمان ومكان ، وهو عون لهذا الإنسان فى حياته اليومية ، وفى حياته الاجتماعية ، وفى حياته الدولية ، لا حياة حقيقية له بدونه ، بينما صارت آلهة الآخرين فى حياتنا المعاصرة عبئاً عليهم ، ومن ثم تنكروا لها ، واعترفوا بكفرهم بها ، وصار الإله عندهم دليل عجز وقصور ، لا دليل قوة واقتدار .

هذه هى وظيفة هذا الكتاب الثانى ، وهذا هدفه :

أن يضع الأقدام على الطريق ، حيث يجب أن توضع ، فمن هداه الله — بعد ذلك — إلى الإيمان ، وفتح صدره عليه ، وتحرر من تلك الشعارات الجوفاء ، التى صارت تملأ حياتنا المعاصرة ، فتحول بيننا وبين الرؤية الصحيحة المستقيمة ، كشعارات الحرية ، وكرامة الإنسان ، ونبذ التعصب ، والتقدم

العلمى والتكنولوجى ،وغيرهاوغيرها، مماخلقتهالماديةالغربية — والشرقية — الحديثة . . . فإن بمقدوره — متى شاء — أن يقرأ عن الله سبحانه بتوسع ، سواء فى كتب العقيدة الإسلامية ، أو فى غيرها ، من الكتب الدينية غير غير الإسلامية ، والكتب المادية الحديثة .

فوظيفة هذا الكتاب هى مجرد . . . التنبيه .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما أردت ، وفيما فكرت، وفيما كتبت، وعلى الله سبحانه وحده توكلت ، وإليه منذ البداية قصدت بهذا العمل ، الذى أرجو أن يكون خالصاً عنده ، ومنه وحده أرجو حسن الجزاء؟

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى : صفر ١٣٩٧هـ .
— فبراير ١٩٧٧م .

الفصل الأول

الله ... الفكرة

تقديم :

رأينا ـ فى الكتاب الأول من هذه السلسلة ـ أن « الإنسان (حيوان ذو عقيدة) » ، وأن « العقيدة الدينية فى رأى معظم الباحثين ، تكاد أن تكون (غريزة فطرية) » ، « فالإنسان يولد فى الحياة ، وعنده إحساس عميق ـ يظل يلازمه طيلة حياته ـ بأن هناك (قوة عليا) تسيطر عليه ، وتدفع به وبحياته وحياة مجتمعه ـ رغماً عنه ـ إلى حيث تريد هى ، لا إلى حيث يريد هو »(١).

وقد كانت تلك (القوة العليا)،هى محور العقيدة الدينية ، عبر عصور الحياة الإنسانية على الأرض ، منذ آدم وحتى اليوم ، سواء كانت هذه العقيدة الدينية عقيدة سماوية ، أو عقيدة أرضية .

الانسان ... والله :

ومن ثم كان بحث الإنسان عن (الله) بحثاً قديماً ، يتصل به من حيث هو « حيوان ميتا فيزيقى أيضاً . إنه طلعة وقلق ، ومتى تم له أن يعى ذاته ، لم يستطع أن يمنع نفسه من التساؤل عن معنى وجوده، ووجود العالم. وهكذا

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ٢٥ .

استشعر بغريزته وجود قوة أعلى ، هى التى خلقت العالم ، وهى التى تقوده إلى مصير خفى »(١) .

فنى الإنسان — منذ كان على هذه الأرض — « (حاسة) روحية ، تتلمس آفاق النور دائماً . . وأنه مهما غرق الإنسان فى الظلام ، فإن تلك الحاسة لا تغفل عن وظيفتها أبداً »(٢)، حيث يولد الإنسان وبه إيمان فطرى بوجود قوة خفية ، تسيطر عليه ، وعلى الحياة حوله .. قوة يفزع إليها عند الحاجة ، ويطمئن بوجودها فى حياته . « ونزعة الإيمان بالله قديمة فى الإنسان قدم خلقه ، وطبيعية فى نفسه كطبيعة حياته ، غير أن هذه النزعة قد اختلفت من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان »(٣).

وبإيمان الإنسان بهذه القوة الخفية التى تسيطر عليه ، يتكامل (كيانه) النفسى ، ولا يتحطم ذلك الكيان ، إلا إذا فقد هذا الإيمان .

فهو يعلق عليها الآمال فيما يقدم عليه من خطوات ، ويندفع فى طريق هدفه ، يبذل فى سبيل تحقيقه قصارى جهده ، وكله ثقة فى أنه سيتحقق ، فإذا تحقق استراحت نفسه وهدأت ، وقد يتذكر تلك القوة الخفية التى كانت تملأ نفسه قبل أن يندفع إلى هدفه . . وقد لا يذكرها .

وإذا لم يتحقق هدفه .. عاد إلى تلك القوة الخفية ، يلم بها شتات نفسه ، حتى لا يتمزق كيانه ، ويتحطم بنيانه ، وما هى إلا فترة ، حتى ينسى - بفضل

---

(١) الدكتور أحمد عروة : الإسلام فى مفترق الطرق — نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان أمين — دار الشروق — ١٩٧٥ ، ص ٣١ .

(٢) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا (قضية الألوهية ... بين الفلسفة والدين) — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ٩٠ .

(٣) عبد الرزاق نوفل : الله ، والعلم الحديث — الناشرون العرب — دار الشعب — ١٩٧٦ ، ص ١٥ ، ١٦

تلك القوة الخفية ـ فشله ، ويستأنف الحياة من جديد ، يخلق لنفسه الأهداف ، ويحلم بتحقيق الآمال ، ويحقق ما كتب له منها ... وتدور العجلة .

وتحيط بالإنسان الشدة ، فيخاف ويرتاع ، ويوشك أن يتمزق كيانه النفسي ، لولا أنه يتذكر أن تلك الشدة إنما هي من تدبير تلك القوة الخفية ، لحكمة تعلمها ويجهلها ، ويرى من الحكمة أن يسلم مقاليد نفسه إليها .. حتى تزول الشدة .

وقد تساعده تلك القوة الخفية في أن يجتاز الشدة ، وقد يعود بعد اجتيازها إليها ، يشكرها ... وقد لا يعود .

وقد تنتهي تلك الشدة بمأساة ، ولكن الإنسان بدلا من أن تحطمه المأساة ، تدفعه غريزة البقاء إلى أن يحطمها ، فيحاول ـ بمساعدة تلك القوة الخفية التي يحس بضرورة لجوئه إليها ـ أن ينساها ، حتى يعيد إلى نفسه توازنها ، وإلى كيانه تكامله .

ولكم كان القرآن الكريم دقيقاً ورائعاً ، وهو يعبر عن هذه الحركات النفسية العميقة :

ـ « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيئوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا ، من بعد ضراء مسته ليقولن : هذا لي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربي ، إن لي عنده للحسنى . فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » (١) .

ـ « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة قال : إنما أوتيته على علم ، بل هي فتنة ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم ،

(١) قرآن كريم : فصلت ـ ٤١ : ٤٩ ـ ٥١ .

فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا ، وما هم بمعجزين »(١) .

وهذه القوة الخفية ، التى يلجأ إليها الإنسان وقت الشدة ، يحفظ بها تكامله النفسى ... يحسها الطفل صغيراً ، تدفعه إليها غريزة الحياة ، ويحسها الشاب قوياً ، يمتلئ حياة وحيوية ، ويحسها الرجل الناضج ، والكهل الفانى ... ويحسها الرجل ، وتحسها المرأة ، فهى ضرورية لتكامل كيان الإنسان النفسى ، كضرورة الطعام والشراب لاستمرار كيانه البيولوجى .

ويحسها كذلك الرجل المتدين المؤمن ، كما يحسها الشيوعى ، رغم أنه يدعى أن (الله) خرافة من تلك الخرافات الكثيرة التى خلقتها الأديان ، لتخدع بها الشعوب ، وينهب بها الأغنياء أقوات الفقراء والكادحين .

فهى إحساس طبيعى ، يحس به الإنسان ، من حيث هو إنسان .

وموطن هذا الإحساس فى الإنسان ، هو لاشعوره فى الغالب ، كما سبق .

ومادام لاشعور الإنسان هو موطن هذا الإحساس ، فإنه إحساس يسيطر على عقله وفكره ، ويسيطر على جوارحه ، ويسيطر على كيانه كله ، أراد أم لم يرد ، عرف سبب هذه السيطرة أم لم يعرفها ، ووصل إليها بعقله أم لم يصل .

الإنسان بين الكفر والإيمان :

وإذا كانت العقيدة الدينية غريزية فى الإنسان على هذا النحو ، وإذا كان الإنسان لا يملك شيئاً إزاء تلك (القوة الخفية) التى تسيطر عليه ، وتكمن فى أعماق لاشعوره ، توجه عقله وتفكيره ، كما توجه حواسه ، بطريقة

---

(١) قرآن كريم : الزمر — ٣٩ : ٤٩ — ٥١ .

لا يدرى لها سبباً ، ولا يستطيع عليها سيطرة .. فكيف يتفق هذا الكلام مع منطق الحياة ، الذى نرى فيه الكفار بالله أكثر من المؤمنين به ، وهو منطق نراه فى عالمنا المعاصر ، ورأينا التاريخ يحدثنا عنه فى صفحاته عن الإنسان منذ كان ، فى كل زمان ، وفى كل مكان ؟

بل وكيف يتفق هذا الكلام مع منطق القرآن الكريم نفسه ، الذى يرى فى الإنسان عكس ماتراه هنا :

— « .... وكان الإنسان كفوراً » (١).

— « .... فإن الإنسان كفور » (٢) .

— « .... إن الإنسان لكفور » (٣) .

— « .... إن الإنسان لظلوم كفار » (٤) .

— « .... إن الإنسان لكفور مبين » (٥) .

— « .... قتل الإنسان ما أكفره » (٦) .

والكفر بالله ، نقيض الإيمان به ، واجتماع النقيضين فى الإنسان أمر يتفق مع طبيعته .

فهو من الناحية البيولوجية حيوان .

وهو يزيد على الحيوان عقلا ، يميز به بين الخير والشر ، ويختار به فى مواطن الاختيار .

---

(١) قرآن كريم : الإسراء — ١٧ : ٦٧ .
(٢) قرآن كريم : الشورى — ٤٢ : ٤٨ .
(٣) قرآن كريم : الحج — ٢٢ : ٦٦ .
(٤) قرآن كريم : ابراهيم — ١٤ : ٣٤ .
(٥) قرآن كريم : الزخرف — ٤٣ : ١٥ .
(٦) قرآن كريم : عبس — ٨٠ : ١٧ .

وله - إلى جانب العقل - لا شعور، يختزن فيه ما يزيد على حاجات يومه وغده القريب . . وما يواجه به المستقبل والغيب والمجهول ، فى غيبة العقل، أو بعيداً عن نفوذه وسلطانه .

ومن ثم فلا تناقض بين كون الإنسان كفوراً ، أو كفاراً ، أو غشوماً ، أو جهولا ، أو غير ذلك من الصفات التى يصف بها القرآن الإنسان ، وبين كون هذا الإنسان - بطبعه - ذا عقيدة ، تلجئه إلى الله ، ويهتدى بها فى ظلمات حياته .

فهو يلجأ إلى عقيدته ، ويتوجه إلى ربه ، عندما تظلم من حوله الحياة ، أو تغلق فى وجهه الأبواب . . فهنا - عند الشدة - تصحو (الغريزة)، لتنبه ذلك الكيان الخامد المجهول . . أما عندما تضحك الحياة، وتفتح الدنيا أبوابها، ويبتعد الخطر، فهنا يصحو (الحيوان) فى ذلك الكيان، فينسى الخطر ولحظاته، وتشده الجاذبية إلى الحضيض .

والآيات التى سبقت الإشارة إليها من قبل، من سورتى (فصلت) و(الزمر)، تدل على هذا المعنى دلالة واضحة .

ومنها يبدو أن (الكفر) ليس نقيض (الإيمان) على الدوام ، وإنما الكفر يكمل الإيمان فى حياة ذلك الإنسان ، يشده الإيمان بالله إلى أعلى فى بعض الأحيان ، ويهبط به الكفر فى بعض الأحيان ، أو بعبارة أخرى : تتجاذبه طبيعته الصاعدة الهابطة ، أو تتجاذبه فطرته التى فطره الله عليها ، وما ركب فيه من جسد فان، هو مستودع لكل الشهوات، فقد «خلق الله هذا الإنسان جسماً كثيفاً، وروحاً شفافاً ، جسماً يشده إلى الأرض ، وروحاً يتطلع إلى السماء ، جسماً له دوافعه وشهواته ، وروحاً له آفاقه وتطلعاته ، جسماً له مطالب أشبه بمطالب الحيوان، وروحاً له أشواق كأشواق الملائكة»(١).

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة — الطبعة الثانية — مكتبة وهبة — ١٩٧٣ ، ص ٧٦ .

صحيح أن الإنسان — فى تأرجحه هذا بين الإيمان والكفر — قد يكون أكثر انجذاباً إلى أحد النقيضين، فإذا كان الإنسان أكثر استسلاماً لشهواته، كان أقرب إلى الكفر، وأبعد عن الإيمان، وإذا كان الإنسان أكثر ضبطاً لنفسه وشهواته، كان أقرب إلى الإيمان، وأبعد عن الكفر.

واقتراب الإنسان من الله درجات.

وابتعاد الإنسان عن الله — أيضاً — درجات.

واقتراب الإنسان من الله يحتاج إلى مجاهدة، تزيل الغشاوة عن العيون، حتى تكون أحد إبصاراً، وأقدر على الرؤية السليمة، فتدفع الإنسان إلى الله فى كل حال، لا فى حال دون حال، كما يفعل معظم الناس، حين يدعون الغشاوة تطغى حتى تسد العيون، حتى لا ترى، فيتخبط الإنسان فى ظلام الجهل .. بعيداً عن الله.

والقرآن الكريم نفسه يعترف بهذه الحقيقة، اعترافه بظلم الإنسان وكفره وجهالته .. فهو كثيراً ما يصف الإنسان بهذه الصفات، مع استثناء:

— « إن الإنسان خلق هلوعاً. إذا مسه الشر جزوعاً. وإذ امسه الخير منوعاً. إلا المصلين » (١).

— « والعصر. إن الإنسان لفى خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٢).

فرعون .. واله موسى :

والتاريخ يحفظ لنا أسماء كثيرة، ممن كانوا أكثر انجذاباً إلى الإيمان، أو أكثر انجذاباً إلى الكفر. وممن كانوا اكثر انجذاباً إلى الإيمان.. وإلى الله،

---

(١) قرآن كريم : المعارج — ٧٠ : ١٩ — ٢٢.
(٢) قرآن كريم : العصر — ١٠٣ : ١ — ٣.

أنبياء الله ورسله، عليهم السلام، وممن كانوا أكثر انجذاباً إلى الكفر، فرعون وقارون، هذا أعماه ماله عن الله، وذلك أعماه سلطانه عنه، فكان السلطان هو الذى يبدد ظلمات حياة فرعون، وكان المال هو الذى يبدد ظلمات حياة قارون، فلم يكن لهما — بمنطق الحيوان فى كل منهما — حاجة إلى الله.

ويتعرض القرآن الكريم لقصتى الرجلين، فنرى فيهما هذا المعنى، الذى سبق أن أشرنا إليه.

ولكننا نقف عند قصة فرعون، لأنها تغنى عن قصة قارون، بينما لا تستطيع قصة قارون أن تغنى عن قصة فرعون، وذلك لأن السلطان يمكن أن يأتى بالمال، بينما لا يستطيع المال — بالضرورة — أن يأتى بالسلطان، بل على العكس من ذلك، يمكن أن يكون سبباً من أسباب غضب السلطان على صاحبه، ومغرياً بالعدوان عليه، ومن ثم يكون مصدر (شقاء) للإنسان، لا مصدر طمأنينة له.

كان فرعون ملكاً لمصر، ولم يكن له سلطان الملوك وجاههم وثروتهم وحدها.. بل كان — كأى ملك قديم لمصر — يعتبر إلهاً، أو ابناً للإله(١).

وإذا كان رجل يعيش بين الناس، له المال، وله السلطان الذى يصل به إلى حد التألية، فمن أين يأتيه الخوف والقلق، بحيث يضطر إلى أن (يفزع) إلى الله، كما يمكن أن يفعل غيره من الناس ؟

إن كل ما حوله يدفعه إلى أن يفعل عكس ذلك، فيعتقد أنه ـ بالفعل ـ إله:
— « ونادى فرعون فى قومه، قال: يا قوم، أليس لى ملك مصر،

---

(١) لنا عودة إلى فكرة (الإله) فى مصر القديمة، فى الفصل التالى.

وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ »[١].

— « وقال فرعون : يأيها الملأ ، ما علمت لكم من إله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين، فاجعل لى صرحاً ،لعلى أطلع إلى إله موسى،وإنى لأظنه من الكاذبين »[٢].

— «وقال فرعون : يا هامان ابن لى صرحاً ،لعلى أبلغ الأسباب. أسباب السموات، فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا فى تباب »[٣].

وعندما ينمو الكيان العام لشخص، على هذا النحو الفاسد ، فإن طريقه إلى الإيمان بالله لابد أن يكون مسدوداً :

— « فأراه (أى سيدنا موسى) الآية الكبرى . فكذب (أى فرعون) وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال : أنا ربكم الأعلى »[٤].

ولكن هذا الكيان العام الفاسد ينهار ساعة الخطر وحدها :

— « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده ، بغياً وعدواً ، حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ،وأنا من المؤمنين»[٥].

وأعتقد أن هذا الموقف الذى وقفه فرعون ، وذلك التحول الذى تحوله من النقيض إلى النقيض ، من الإنكار التام لله ، والكفر التام به ، إلى

---

(١) قرآن كريم : الزخرف — ٤٣ : ٥١ .
(٢) « « : القصص — ٢٨ : ٣٨ .
(٣) « « : غافر — ٤٠ : ٣٦ ، ٣٧ .
(٤) « « : النازعات — ٧٩ : ٢٠ — ٢٤ .
(٥) « « : يونس — ١٠ : ٩٠ .

الإيمان به .. وقفه وتحوله كل حاكم مستبد ، عاش - ويعيش - فى هذه الحياة الدنيا .

وأتصور أن هذه الكلمات الأخيرة ، التى لفظ بها فرعون فى آخر أيام حياته، قد لفظ بها هتلر، ولفظ بها موسولينى .. بعد أن تخلت عنهما الحياة .. ولفظ بها كل من وصل إلى ما وصل إليه هتلر وموسولينى .. وقبلهما فرعون، من سلطان وجاه .. ثم تخلت عنه الحياة بعد إقبال .

وعلى النقيض من هذا الموقف تماماً ، موقف المؤمنين (بإنسانيتهم) ، وأعباء هذه (الإنسانية) وتكاليفها ، حتى ولو كلفتهم هذه الحياة الدنيا .

وما دمنا أمام قصة فرعون ، فليكن حديثنا عن السحرة ، كنماذج لهؤلاء المؤمنين .

وقد كان هؤلاء السحرة يؤمنون بفرعون إلهاً ، كما كان يؤمن به كل المصريين ، وكان هذا (الإله)(المزيف) يملأ وجدانهم ، ويشبع عقيدتهم الدينية ، ومن ثم اندفعوا معه فى وجه موسى عليه السلام ، بسلاحهم الذى يحكمونه ، وهو سلاح السحر .

بيد أن هذا (الاندفاع) نفسه ، هو الذى أوقفهم على الحقيقة ، فحولهم من النقيض إلى النقيض .

كانوا من (حماة) (الإله) المزيف ، لأنه كان يوفر لهم ما ينشدونه من رزق ومركز وأمن ، وعندما عرفوا الحقيقة ، صاروا من (الثائرين) عليه، بل لقد تقدموا هؤلاء الثائرين .

ويتهدد فرعون السحرة، بأقسى ألوان العقاب ، ولكن أنى لتهديده أن يصل إلى قلوب استيقنت الله سبحانه ، وذاقت حلاوة الإيمان به . . عن يقين ؟

إنهم لا يعبئون بفرعون وبطشه ، وإنما وجهتهم الله سبحانه .. وفي سبيل ذلك ، تهون الصعاب .. كل الصعاب :

— « فألقى السحرة سجداً . قالوا : آمنا برب هارون وموسى . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن : أينا أشد عذاباً وأبقى ؟ قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى »(١) .

لقد زالت الغشاوة .. وإذا زالت الغشاوة ، كان الطريق إلى الله سبحانه مفتوحاً على مصراعيه .

رؤية الله :

والإنسانية في تطورها كالإنسان الفرد سواء بسواء .

والطفل — في حياتنا اليومية — يصر على أن يرى الله ، وهو كلما رأى رجلا ذا بأس شديد ، ظن أنه الله ، وإذا سمع عن رجل يتعلق الناس به ، ظنه الله .. ويظل الطفل يكبر وينمو ، وينمو معه عقله ، حتى يصل إلى (تجريد) فكرة (الله) .. فيبعد بها عن الرؤية ، ويتصورها كما هى ، في ضميره ووجدانه .

والأطفال عندما يفعلون ذلك مع (الله) ، تماماً كما يفعلونه مع جهاز الراديو ، حينما يتصورون شخصاً بداخله يتكلم ، ويصرون على فتح ذلك (الصندوق) ، ليروا ذلك الشخص .

فهذه إمكانياتهم العقلية ، ويظل شأنهم كذلك ، حتى تزيد هذه الإمكانيات .

---

(١) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ٧٠ — ٧٣ .

وكانت الإنسانية فى مراحل تطورها الأولى أشبه بأطفالنا نحن اليوم ، فهى لا تستطيع أن تتصور الله إلا إذا رأته . . وإذا ترقت قليلا فى مراحل النمو ، كان فى إمكانها أن تتصور أنه (يتجسد) شجرة أو حيواناً .. أو صنعت بيديها وثناً ، يتجسد فيه ذلك الإله .

وإذا اكتمل نمو الإنسانية . كان بمقدورها أن تفهم (الإله)، كما يجب أن يفهم .

بل إن القرآن الكريم ذاته ليؤكد لنا هذه الفكرة ، فى معرض حديثه عن نبيين من أنبياء الله ، هما : إبراهيم وموسى ، عليهما السلام .

ولقد خاض إبراهيم الخليل رحلة (شك) طويلة ، فى مسألة (الله) هذه ، وصل بعدها إلى (إيمان) راسخ ، كذلك الإيمان الذى رأيناه عند سحرة فرعون ، أو يزيد .

شب إبراهيم عليه السلام ، فوجد قومه — كغيرهم من الناس فى ذلك العصر — يعبدون أصناماً صنعوها بأيديهم ، فلم تقبل (فطرته) السليمة هذا المنطق ، رغم حداثة سنه :

— « إذقال لأبيه وقومه: ماذا تعبدون؟ أ إفكا آلهة دون الله تريدون؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ فنظر نظرة فى النجوم . فقال : إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم ، فقال : ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين . فأقبلوا عليه يزفون . قال : أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون »(١) .

وما أن يوجد ذلك (الفراغ) العقائدى فى نفس الخليل إبراهيم ، حتى

---

(١) قرآن كريم : الصافات — ٣٧ : ٨٥ — ٩٦ .

« يخلو إلى تأملاته ، يبحث عن إلهه »(١) ، الذى يسد به ذلك الفراغ .

ويجتاز — بفكره وقلبه ، وكيانه كله — تلك الرحلة الطويلة بين اليقين ثم الشك ، مع النجوم والقمر والشمس . . قبل أن يصل إلى الله سبحانه :

— « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال : هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين »(٢) .

وما أن يصل إلى الله على هذا النحو ، حتى تبدأ مرحلة الشك التى لازمته ، بعد كل يقين مر به فى مراحله السابقة ، فيطلب من الله سبحانه أن يثبت له قدرته ، حتى يقتنع تماماً ، أو حتى (يطمئن قلبه) ، على حد تعبيره . . وهنا تستجيب الإرادة الإلهية له . . بعد أن قطع تلك الرحلة الطويلة إلى الله :

— « وإذ قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم »(٣) .

وما أن (يسد الفراغ) العقائدى فى تلك النفس التى اتصلت بالله . . حتى تبدأ (رسالة الإنسان) تفرض نفسها عليه ، فهو لا يكتفى بأنه قد (علم) و(آمن) ، وإنما لابد أن يتجاوز ذلك إلى أن يعلم غيره ، مهما تحمل فى سبيل ذلك (الإعلام) من متاعب وويلات .

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن — دار الشروق ، ص ١٦٤ .

(٢) قرآن كريم : الأنعام — ٦ : ٧٦ — ٧٩ .

(٣) « « : البقرة — ٢ : ٢٦٠ .

والذى يقف عقبة فى طريق الناس إلى الله ، هو تلك الأصنام ، فلابد من إزالتها أولا من العيون ، فذلك طريق إزالتها من القلوب .

« ويتجه الخليل إبراهيم إلى تلك الأصنام فيحطمها ، ويحدث تلك (الثورة الثقافية) فى الرأى العام الغافل ، ويكون ماتوقعه من شردامم ، وخطر جسيم ، ولكنه يقبل عليهما فى ثقة تامة ، ويقين لايتزعزع ، راضى النفس سعيداً ، لا ينحرف عما استيقنته نفسه قيد أنملة »(١) .

ورغم ما بين النبيين الكريمين — موسى وإبراهيم ، عليهما السلام — من تفاوت تام فى الشخصية ، فهذا هادئ النفس حليم وديع مسالم إلى أبعد الحدود ، وذاك ثائر النفس مضطرب متسرع عجول ، أقرب إلى العنف منه إلى السلام ، وربما كان هذا التفاوت يعود إلى (تربية) كل منهما ، وظروف تنشئته ، وما مر به فى حياته من ظروف وأحداث . . . رغم ذلك كله ، فهما يتفقان — دون غيرهما من أنبياء الله الآخرين — فى طلب رؤية الله هذه .

ولكننا نرى الفرق كبيراً بين طلب هذا وطلب ذاك ، فقد كان طلب سيدنا إبراهيم هادئاً رقيقاً ، بينما كان طلب سيدنا موسى عنيفاً ، وكان رد الفعل الإلهى مختلفاً ، وكانت النتيجة مختلفة أيضاً ، رغم أنها أدت — فى الحالين إلى إيمان ويقين :

— « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك ،

---

(١) الدكتور عبد الغنى عبود : « مع الخليل ابراهيم فى يقينه » — منبر الإسلام — يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — السنة ٣٢ — العدد ١٢ — ذو الحجة ١٣٩٤ — ديسمبر ١٩٧٤ ، ص ١٤١ .

تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين . قال . يا موسى ، إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك ، وكن من الشاكرين »(١) .

وإذا كان أنبياء الله أنفسهم قد أراد بعضهم — على نحو من الأنحاء — أن يروا الله ، فكيف ببقية خلق الله ؟

إنهم — رغم أنهم مصطفون من الله — بشر ، وللبشرية سلبياتها،حتى فى حياة الأنبياء،وإن كانت لهذه السلبيات فى حياتهم حدود ، لا تتعداها .

ورغم التقدم العلمى ، والنضج العقلى ، الذى توصلت إليه الإنسانية عبر آلاف السنين ، فإن رائداً من رواد الفضاء السوفييت ، الذين وصلوا إلى القمر، يقول : إنه بحث عن ذلك الإله الذى يقولون به ، فى النجوم وفى السموات ، ولكنه لم ير له وجوداً !!

وأن يطالب برؤية الله إنسان بدائى أو طفل ، فهذا ربما كان منطقياً ومقبولا ، أما أن يطالب به إنسان (متحضر) ، يعيش فى القرن العشرين ، فهذا هو الغريب حقاً .

ولست أدرى ما إذا كان ذلك الرائد قد طلب أن يرى المذيع فى جهاز الراديو ، كما يفعل أطفالنا ، أم أنه لم يطلبه ؟

لكنها وثنية جديدة ، لنا إليها عودة فى نهاية الكتاب ، فقد ارتدت الإنسانية فى القرن العشرين إلى طفولة جديدة . . ارتداد الإنسان الفرد إلى طفولته عندما تتقدم به السن .

ولهذه (الردة) الإنسانية إلى طفولتها أسبابها ، التى نرجئ الحديث عنها إلى نهاية الكتاب ، حيث نخصصها لهذا الموضوع .

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١٤٣ ، ١٤٤ .

العقل الأنسانى والله :

وإذا كانت (رؤية) الله مطلباً إنسانياً على هذا النحو ، فإنها ليست مطلباً إنسانياً للرؤية فى حد ذاتها ، وإنما لأن حواس الإنسان — بما فيها عينه — إنما هى الطريق إلى العقل الإنسانى . . ومن ثم هى الطريق إلى (كيان) الإنسان كله .

بيد أن عقل الإنسان ليس هو الطريق الوحيد إلى (كيانه) ، كما أن غرائزه وشهواته ليست هى الطريق الوحيد أيضاً إليه .

وكثيراً ما يحس الإنسان بعدم ميل نحو شخص ، يقتنع عقلياً بأنه فاضل ، ويرى عملياً أنه يقدم له العون . . ورغم ذلك يحس بأنه (ثقيل الظل) ، دون ما سبب محدد واضح .

ومن تلك الإحساسات (المبهمة) ، التى لا يعرف لها الإنسان سبباً — كما رأينا فى الكتاب الأول من السلسلة ، وفى مطلع هذا الكتاب — إحساسه الدينى ، وإحساسه بوجود إله .

وقد يكون هذا الإحساس منطقياً ، يتفق مع العقل ، وقد لا يكون ، ولكنه — على أية حال — موجود .

على أن من الحق إلقاء (عبء) الوصول إلى الله على العقل وحده ، فالعقل الإنسانى — مهما بدا لنا اليوم معجزة — ورغم أن الإسلام نفسه يرى أنه معجزة — محدود محدود ، إذ ليس فى قدرة الإنسان العقلية أن يعرف الله ، ولا أن يفهم قدراته ، ولكى يفهم الإنسان ، لابد أن يحيط بالشىء ، أى أن يكون هو أكبر من الشىء الذى يريد فهمه ، وأن يقلبه فى يديه أمام عينيه ، ويحدد أبعاده ووزنه ، وأن يصبح قادراً على أن يملأ به نفسه . . وأن يبعده عن نفسه بعض الوقت ليتأمله . . وهذا غير ممكن للإنسان فى

أى عصر وفى أى شيء — ومن أى ثقافة أو فلسفة »(١) .

ومن ثم فإن « العقل — مع هذه المنزلة التى يحتلها فى كيان الإنسان — هو سلاح ذو حدين ... فقد يكون مصباحاً يضيء ، أو شهاباً يحترق ويحرق !

فإذا عرف الإنسان الحدود التى ينبغى أن يقف عندها عقله ، وجعل وظيفته داخل هذه الحدود ، لا يتعداها ، جنى من عقله أطيب ثمراته ، وملأ يديه بالطيب الوفير من خيره . . .

أما إذا أرخى المرء لعقله العنان ، وترك الزمام ، وسمح له أن ينطلق كيف يشاء ، وأن يخترق الأجواء المقدر له أن يعيش فيها ، إلى أجواء ليس له فيها مجال — فإنه حينئذ يفقد توازنه ، وتضطرب حركته» .

« يستطيع العقل أن يرى (الله) رؤية واضحة ، إذا هو وقف من هذا الوجود وقفة المتأمل البصير ، الذى يفرق بين الأسباب والمسببات ، وبين العلل والمعلولات ، ويستدل على الغائب بالحاضر ، وعلى الخالق بالخلق الذى خلقه . . فتلك هى وظيفة العقل فى هذه القضية . . . » .

و« أكثر الذين كفروا بالله ، هم أولئك الذين عرفوا بين الناس بشيء من العقل ، ثم ابتلوا بالغرور ، فحسبوا أن العقل قادر على أن يذهب بهم كل مذهب »(٢) .

ولكن الثقة فى العقل الإنسانى هى آفة الإنسان المعاصر ، كما سنرى فى نهاية هذا الكتاب الثانى .

---

(١) أنيس منصور : طالع الندر علينا — الطبعة الأولى — المكتب المصرى الحديث — ١٩٧٥ ، ص ١٣٤ .

(٢) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتاً وموضوعاً (مرجع سابق) ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

وقد كانت هذه الثقة ، هي آفة بني إسرائيل ، منذ وجدوا على الأرض، كما سنرى في الكتاب الذي سنخصصه لهم من هذه السلسلة .

والثقة في العقل على هذا النحو ترتد بالإنسان — من حيث لا يدري — إلى طفولة ، لأن العقل يريد أن يرى ويسمع ، ويلمس ويذوق ويشم . . وهو إذا وصل إلى ذلك كله ، إنما يهبط إلى أسفل ، حيث يبقى في حضيض، لا يستطيع أن يرتقي منه ثانية إلى حيث هو ، أو إلى حيث يجب أن يكون .

الفصل الثانى

الله .. فى الحضارات القديمة

تقديم :

الإنسان مخلوق ذو عقيدة، وبدون تلك العقيدة، ينهار (الكيان) الإنسانى.

وما دام الإنسان ذا عقيدة ، فهو دائماً يبحث عن (إله) ، يلوذ إليه ، ويحتمى به ، ويخشاه .

وكانت العقيدة الدينية تقف دوماً وراء الإنسان ، فى كل خطوة يخطوها فى طريق الحضارة والمدنية، حيث «يقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية، أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ماعداه من العوامل المؤثرة فى حركات الأمم ، فإنما تتفاوت فيه القوة ، بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن ، من أصالة الشعور ، وبواطن السريرة . . »[1] .

وكانت هذه العقيدة الدينية، التى تؤمن بإله قادر، فى نظر المرحوم عباس العقاد — لوناً من ألوان (التكيف) الإنسانى ، فى مواجهة قوى الطبيعة الشرسة من حول الإنسان ، ولوناً من ألوان مواجهة الإنسان (لقدره) ، على نحو يستطيع به مواجهة المصائب ، دون أن يتحطم على جنباتها ، حيث يظهر له « أن الإيمان بالقدر ، ملازم للإيمان بالمعبود ، منذ أقدم العصور . . فقبل الأديان الكتابية ، وقبل الأديان الكبرى، التى آمنت بها أمم الحضارة

---

(١) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه — دار الإسلام — القاهرة — ١٩٥٧ ، ص ٢٠ .

فى العصور القديمة ، كان الإنسان فى جهالته الأولى يؤمن بالأرباب والأرواح، ويعبدها، لأنها تتصرف فى شئونه ، وتمنحه بعض ما يحب ، وتبتليه ببعض ما يكره ، وتتدخل بإرادتها فيما يريد ومالا يريد . . .

فلم يكن فى وسعه أن يجهل منذ أقدم القدم أنه محدود الحرية ، مغلوب الإرادة ، محتاج إلى رياضة القوى التى تحيط به ، وتملك إعطاءه ومنعه ، تارة بالقرابين والصلوات ، وتارة بالرقى والتعاويذ »(١) .

ويغلب على الظن أن الإنسان الأول ارتقى فى مجال العلم والحضارة ، قبل أن يرتقى فى مجال الروح والعقيدة .

ذلك أن العلم والحضارة مطلب من مطالب الحياة اليومية ، يواجه به الإنسان غرائزه وحاجات يومه، بينما الروح ومسائل العقيدة مطلب أسمى من ذلك المطلب ، رغم ضرورتها للإنسان .

والمتتبع للحضارات القديمة ، يستطيع أن يرى بوضوح : فى أى المجالين ارتقى الإنسان أولا ، وفى أيهما ارتقى بعد ذلك ؟

وسوف يرى — بالضرورة — كما سنرى بعد حين — أن الإنسان ارتقى فى مجال العلم والحضارة ، ثم بدأ يرتقى بعد ذلك فى العقيدة الدينية والفكر الدينى ، ثم صارت هذه العقيدة الدينية — فى النهاية — خير حارس لما أحرزه الإنسان من انتصارات فى مجال العلم والحضارة .

الحضارة والدين . . فى العصور القديمة :

فى هذا الشرق الأوسط الذى نعيش فيه ، بدأت الحضارة الإنسانية الأولى ، وبدأ الفكر الدينى القديم، قبل أن تتنزل ديانات السماء ، وفيه أيضاً

---

(١) عباس محمود العقاد : الفاسفة القرآنيــة — دار الإسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ ، ص ١١٥ .

تنزلت ديانات السماء بعد ذلك .. ولاختيار الشرق الأوسط بالذات - من بين أنحاء المعمورة الأخرى - سبب، يمكن أن نستنتجه من كلام العلامة العربى، عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣١ — ١٤٠٥م)، فى مقدمته المشهورة . يقول ابن خلدون :

« والمعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه ، لإفراط الحر فى الجنوب منه ، والبرد فى الشمال ، ولما كان الجانبان ، من الشمال والجنوب ، متضادين من الحر والبرد ، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط ، فيكون معتدلا » . « وجميع ما يتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً ، حتى النبوءات ، فإنما توجد فى الأكثر منها »(١) .

ونتيجة لهذه (الوسطية) ، أو التوسط والاعتدال ، كان الشرق الأوسط — منذ أقدم العصور — المقصد والهدف ، للهجرات البشرية المتتالية ، التى اتجهت إليه من الشمال والجنوب ، تبحث عن الدفء ، وعن لقمة العيش ، وعن شىء من الطمأنينة على حاجاتها العاجلة الملحة .

وظل الإنسان مئات الآلاف من السنين يعيش حياة بدائية ، « يأكل اللحوم النيئة ، ويسكن الكهوف والجحور »(٢) ، ويجمع الطعام من هنا وهناك ، بطريقة بدائية غير منتظمة ، لا يعرف حياة الاستقرار ، ولا يعرف حياة الجماعة .

---

(١) مقدمة العلامة ابن خلدون — المكتبة التجارية الكبرى ، ص ٨٢ (من المقدمة الثالثة ، عن : المعتدل من الأقاليم والمنحرف ، وتأثير الهواء على ألوان البشر ، والكثير من أحوالهم) .

(٢) الدكتور هارى نيكولزهولز : قصة الكيمياء ، من خلال أنبوبة الاختبار — ترجمة الدكتور ألفونس رياض ، والدكتور عبد العظيم عباس — مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل — رقم (٢٨٤) من (الألف كتاب) — مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، ص ٢٣ .

ولم يبدأ الإنسان يعرف هذه الحياة الجماعية ، ويترك حياته البدائية تلك ، إلا بعد اكتشافه النار ، بطريق الصدفة المحض ، وباكتشافها ، بدأ يترك الكهوف والجحور ، ويأكل الطعام الناضج ، ويتجمع فى جماعات محدودة .

وتؤكد الدراسات ، أن هذا التجمع الإنسانى الأول ، كان على ضفاف الأنهار ، فى مصر والشام والعراق وفارس ، وأن هذا التجمع الإنسانى — فى بلاد الشرق الأوسط — قد خلق « فى سورية ومصر والعراق وإيران ، حضارات ذات مكانة ومقام » ، إلى جانب « كثير من كتب العلم ، إلى جانب كثير من المؤسسات الطبية والعلمية »(١) .

وكانت هذه البلاد بالذات ، هى مراكز التجمع السكانى ، ومواطن الحضارة ، فى العصور البدائية القديمة ، لأن التجمع كان يتم حول نهر ، وفى وادى ذلك النهر ، وعلى شاطئيه ، كانت الهجرات البشرية تحط الرحال

« وحيثما يكون هناك ماء ، تقوم ثورة فى حياة الإنسان »(٢) — على حد تعبير ليوبولد ، حيث « تتجدد الحياة فى صورة رائعة لا مثيل لها »(٣) .

وكان من نتائج هذا (التجمع) السكانى فى بلاد الشرق الأوسط تلك ، أن بدأ (الإنسان) ينسج « الخطوط الأولى للمدنيةو العمران »(٤) ، ويخوض

---

(١) ألدوميلى : العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى — نقله إلى العربية : الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى — قام بمراجعته على الأصل الفرنسى : الدكتور حسين فوزى — جامعة الدول العربية — الإدارة الثقافية — الطبعة الأولى — دار القلم — ١٩٦٢ ، ص ١٢٣ .

(2) LEOPOLD. A. STRAKER and the Editors of LIFE : The Desert; LIFE Nature Library; Time-Life International (Nederland) N. V.; 1963, p. 16.

(3) Ibid., p. 103.

(٤) ك . ر . تيلر : الكيمياء والإنسان — ترجمة الدكتور حسن عابدين — مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل — رقم (٤٤١) من (الألف كتاب) — دار الهلال — ١٩٦٢ ، ص ٥ — من التقديم ، للدكتور عبد الفتاح اسماعيل .

غمار الثورات العديدة ، التى وصلت (بالإنسان) — فى النهاية — إلى حضارته الرائعة .... الراهنة .

وكانت أولى تلك الثورات التى خاضها الإنسان القديم ، فى هــذه المجتمعات ، هى (الثورة الزراعية) ، التى يرى كلنتون هارتلى جراتان ، أنها لا تقل أهمية عن « الثورة الصناعية على أقل تقدير ، ومعناها الأساسى إحلال إنتاج الطعام بطريقة دائمة ومنتظمة ، محل جمع الطعام من هنا وهناك »(١) .

وتمخضت تلك (الثورة الزراعية) ، عن تجمع الناس فى مجتمع (القرية) ، ثم تجمعت القرى ، وتشابكت مصالحها وتعقدت ، وتطورت الحياة فيها ، بحيث صارت (الصناعة) أمراً ضرورياً للحياة فيها ، ومن ثم انتقل الإنسان القديم إلى ثورته الثانية ، وهى (الثورة الصناعية) ، حيث « ظهرت صناعات المعادن » ، و « ترقت صناعة الأدوات وتهذبت ، ووصلت إلى درجة عالية من الحدة والصقل ودقة الصنع »(٢) ، وذلك « قبل سنة ٣٠٠٠ ق.م »(٣) — أى منذ ما يقرب من خمسة آلاف عام ، أو قرابة خمسين قرناً من الزمان .

وقد تمت الثورة الثانية — الصناعية — فى المدينة ، ولذلك كثيراً ما تسمى بثورة المدينة ، نسبة إلى المجتمع الذى فجرها ، وهو مجتمع المدينة(٤) .

وبدأ مفهوم (الدولة) فى الظهور نتيجة لذلك كله .

---

(١) كلنتون هارتلى جراتان : البحث عن المعرفة ، بحث تاريخى فى تعلم الراشدين — ترجمة عثمان نويه — تقديم صلاح دسوقى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٢ ، ص ٢٨ .

(٢) دكتور سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى — عالم الكتب — ١٩٧٠ ، ص ٥٣ .

(3) THE WORLD BOOK ENCYCLOPAEDIA; Modern Comprehensive Pictorial; Volume 5, E, The Quarrie Corporation, Chicago, p. 2151.

(٤) ربما كانت المدنية Civilization ، بمعنى الحضارة ، نسبة إلى المدينة ، التى تفجرت فيها هذه الثورة الثانية .

ثم بدأت الحروب بين الدول، وقامت حضارات، وانهارت حضارات، وحلت محلها حضارات .

وكانت الخطوات الأولى فى طريق الحضارة والمدنية ، هنا فى الشرق الأوسط ، ثم كانت الخطوات التالية هناك . . فى الهند والصين وجنوب شرقى آسيا . . ثم كانت الخطوات الأخيرة . . فى أوربا .

وما أن حلت (مشكلات) لقمة العيش ووسائل الحياة الضرورية فى تلك المجتمعات القديمة . . حتى بدأت مشكلات الروح تفرض نفسها على حياة تلك المجتمعات .

ومن ثم بدأ هذا الفكر الدينى، يظهر فى المجتمعات التى سبقت إلى طريق الحضارة والمدنية ، فقد ظهر ذلك الفكر الدينى أول الأمر فى مصر القديمة، سنة ٣٠٠٠ ق.م، عندما وصلت إلى درجة معقولة من التقدم الحضارى، ثم ظهر بعد ذلك فى فارس ، ولم يبدأ ذلك الفكر الدينى فى الظهور فى الشرق الأقصى قبل سنة ٦٠٠ ق.م(١) .

وليس معنى أن الأديان ، أو التفكير الدينى ، وجد فى هذه المجتمعات القديمة ، بعد أن قطعت شوطاً فى طريق الحضارة والمدنية ، أن الإنسان البدائى ظل يعيش مئات الآلاف من السنين ، فى كهوفه وجحوره ، مجرداً من العقيدة الدينية ، أو لا يعرف طريقه إلى الله . . فالإنسان - كما رأينا فى الكتاب الأول من هذه السلسلة ، وكما رأينا فى مطلع هذا الكتاب — لا يستطيع أن يحيا بغير عقيدة، ولا يستطيع أن يعيش — بالتالى — بغير إله .

---

(١) للتفصيل ، ارجع إلى :
— دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد إسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ٥٣ — ٧٥ . وسوف نعود إلى بعض التفصيل لذلك فيما بعد .

وإنما معناه أن الدين ، كظاهرة اجتماعية . وأن العقيدة الدينية : كلون من ألوان (الإحساس العام) ، الذى يطبع مجتمعاً بأسره ،له ظروف حياته الزمانية والمكانية ، ودرجة رقيه العقلى — بدأت فى الظهور متأخرة ، بعد أن قطع المجتمع شوطاً فى طريق الحضارة والمدنية ، وصار — بعد اطمئنانه على حياته الطبيعية — مشغولا بالبحث فيما وراء الطبيعة ، بصورة منظمة .

وقد ظهر هذا الفكر الدينى المنظم ، فى العقيدة ، وفى الله ، وفى غيرهما من مسائل ما وراء الطبيعة، فى مصر القديمةوغيرها من بلاد الشرق الأوسط القديم ، قبل أن يظهر فى بلاد الشرق الأقصى مثلا ، بعشرات القرون ، وهى نفس المسافة الزمنية التى فصلت بين هذين المجتمعين القديمين فى طريق الحضارة والمدنية .

ومن المجتمعات الأقل تقدماً فى طريق الحضارة والمدنية ، وفى طريق الفكر الدينى المنظم بالتالى . . سوف نبدأ جولتنا مع هذه الحضارات القديمة . . لنساير فكرة (الله) من أبسط صورها وأقلها تعقيداً . . إلى صورتها المعقدة ، كما بدت فى فكر هؤلاء القدماء .

الله . . فى الصين القديمة :

وإذا كانت العقيدة الدينية ، والإله — محور هذه العقيدة بالتالى — ضرورة عملية من ضرورات الحياة الإنسانية ، لأنها تحقق حاجة أساسية من حاجات كيانه ووجوده ، فهكذا كانت تلك العقيدة ، وذلك الإله ، فى المجتمع الصينى القديم — رغم أنه كان قد سبقه على طريق الحضارة ، وعلى طريق العقيدة فى نفس الوقت ، شعوب أخرى ، كالشعب الهندى ، بالقرب منه ، وكشعوب الشرق الأوسط بعيداً عنه ، وعلى رأسها بطبيعة الحال : مصر والعراق والشام .

والصين فى العالم القديم والحديث على السواء، أمة لانظير لها، «فى ضخامتها

وكثرة شعوبها وترامى أطرافها»(١) ، وفى الوقت ذاته، هى أمة معزولة عن العالم المتحضر من قديم ، وكانت الحياة فيها فى عصورها القديمة شاقة ، ومن ثم « اشتهر الصينيون بالجد والعمل الطويل المستمر الشاق »(٢)، جلباً للقمة العيش ، التى تحفظ على الإنسان الحياة .

وفى مثل هذه الحياة البدائية المحدودة، البعيدة عن حركة الحضارة العالمية، يكون (الولاء للأسرة) ، هو السمة التى تميز بها الصينى من أقدم عصوره ، وتكون (التضحية) فى سبيل الجماعة ، سمة ملازمة لتلك السمة الأساسية .

وفى مثل هذه الحياة البدائية المحدودة أيضاً ، يكون (التفكير العملى)، الذى يحل مشكلات الحياة اليومية ، لا التفكير الفلسفى ، أو الميتافيزيقى ، الذى يسرح فى آفاق خيالية .

وبهذه الجوانب المختلفة التى رأيناها ، اتسمت الحضارة الصينية منذ أقدم العصور ، فقد كانت هى (النواة) ، التى دارت حولها ثقافة الصينيين ، ودار حولها تفكيرهم ، وبنيت عليها حضارتهم .

كما كانت هذه الجوانب أيضاً ، هى التى حددت معالم العقيدة الدينية الصينية القديمة ، وحددت فكرة (الله) عند الصينيين القدماء .

ويرى المرحوم عباس العقاد ، أن الأمة الصينية « لا تحسب من أمم الرسالات الدينية » ، « وهى باصطلاح التجارة تحسب من الأمم المستنفدة فى مسائل الديانات ، لأنها أخذت من الخارج قديماً وحديثاً » ، « ولم تعط أمة عقيدتها » ، وأن « أهل الصين لا يخوضون كثيراً فى مباحث ما وراء الطبيعة » ، وأن « أشيع العبادات بينهم عبادة الأسلاف والأبطال » ، وأن

---

(١) عباس محمود العقاد : الله — مطابع الأهرام التجارية — ١٩٧٢ ، ص ٦٣ .
(٢) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ص٥٢ .

« الخير والشر عندهم هو ما يرضى الأسلاف ، أو يسخطهم من أعمال أبنائهم »[١] .

وتلك — فى باب العقيدة الدينية — سمات المجتمع الزراعى المتخلف، الذى يخرج من الأرض ما يقتات به بصعوبة ، والذى تعتبر حياة الأسرة — لذلك — جوهر حياته ، والذى يعتبر ما ورثه عن الآباء والأجداد من (تكنولوجيا) ، زاده الأساسى فى مواجهة الحياة الشاقة التى يحياها .

ويرى المرحوم عباس العقاد أيضاً أن « عبادة العناصر الطبيعية» «تتمشى»، « جنباً إلى جنب ، مع عبادة الأسلاف والأبطال . فالسماء والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة ، أكبرها إله السماء ، (شانج تى) ، ويليه إله الشمس ، فبقية الأجرام السماوية ، فالعناصر الأرضية » .

« وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية ، فى القرن العاشر ، حين تسمى عاهل الصين باسم (ابن السماء) »[٢] .

وكانت الديانات ، التى انتقلت إلى الصين — بعد تقدمها فى طريق الحضارة — من جاراتها ، ديانات تتفق مع هذه الأيديولوجيا العامة ، فمن فارس ، انتقلت إليها — عبر اليابان — الكونفوشيوسية ، ومن الهند ، انتقلت إليها البوذية والتاوية ، والمحور الأساسى الذى تدور حوله هذه الديانات الثلاث — كما سنرى فيما بعد — هو حسن الخلق ، والزهد فى الحياة ، والإخلاص فى العمل .

ولنا إلى هذه الديانات الثلاث عودة ، عند حديثنا عن فكرة (الله) فى الهند وفارس .

---

(١) عباس محمود العقاد : الله (المرجع الأسبق) ، ص ٦٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

الله . . عند الفرس :

والعقيدة الدينية فى فارس ، أقدم منها عند الصينيين ، وذلك لأن بلاد فارس أقدم من بلاد الصين على طريق الحضارة والمدنية ، لأنها أقرب منها إلى الاعتدال من جانب ، وأقرب — بالتالى — إلى مراكز التجمع السكانى فى العالم القديم ، خاصة العراق والشام ومصر ، من جانب آخر .

ولذلك يرى المرحوم عباس العقاد ، أن « تاريخ الديانة الفارسية القديمة ، أهم التواريخ الدينية بين الأمم الآسيوية ، لتوشج القرابة بينه وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية ، وارتباطه بالتواريخ السابقة له ، واللاحقة به ، واقتباس الديانة الفارسية من غيرها ، واقتباس غيرها منها ، وتقدم الفكرة الإلهية على يد زرادشت ، صاحب الشريعة القومية فى بلاد فارس ، وأرفع الأعلام شأناً بين دعاة المجوسية ، من أقدم عصورها إلى أحدثها »(١) .

وتختلف فارس عن الصين فى طبيعتها الجغرافية ، حيث « تحيط بها الجبال من كل جانب ، وتتوسطها صحراء واسعة »(٢) ومن ثم اتسم «الفرس بالقوة والوحشية » (٣) من قديم ، فقد اتسموا « باعتدال القامة ، وقوة الجسم . لقد وهبتهم حياة الجبال شدة وصلابة ، وإن أدت الثروة الطائلة التى نعموا بها ، إلى ترقيق طباعهم »(٤) .

والتاريخ الفارسى قبل الميلاد عموماً تاريخ حربى أو عسكرى ، يبدأ بالصراع على السلطة بين الميديين والآشوريين ، ثم يستمر ذلك الصراع بين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩ .
(٢) دكتور محمد قدرى لطفى : دراسات فى نظم التعليم — مكتبة مصر ، ص ١٣٠ .
(٣) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ص٧٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

ذوى الطموح ، على تولى السلطة، وتوحيد البلاد، لتظهر بلاد الفرس فى التاريخ بعد ذلك امبراطورية عظمى ، تناطح امبراطوريات العالم القديم على سيادة المنطقة .

وقصة الصراع بين الفرس والمصريين على زعامة المنطقة قبل الميلاد معروفة .

وقصة الصراع بين الفرس والرومان ـ بعد ذلك ـ على زعامة العالم بعد الميلاد، معروفة أيضا ، فقد شهد الإسلام جزءاً من هذا الصراع، الذى انتهى بزوال الامبراطوريتين، لتفسحا المجال للامبراطورية الناشئة ـ امبراطورية الإسلام.

وحول هذه القسوة والوحشية ، والحياة العسكرية الصارمة العنيفة ، دارت تعاليم زرادشت ، فقد تأثر زرادشت بما كان شائعاً بين الفرس من عقيدة دينية، وفكرة عامة عن الله ، فقد « عاش بينهم زمناً ، وبشرهم بدينه، فاضطر إلى مجاراتهم فى عبادتهم، ليجاروه فى عبادته »(١) ، ومن ثم « فليست المجوسية (دين الفرس) كلها من تعليم زرادشت ، أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة الفارسية » ، « ولكنه تولى هذه العقائد بالتطهير ، وحملها على محمل جديد من التفسير والتعبير »(٢) .

وهكذا كانت الزرادشتية ، عقيدة الفرس دون سواهم من دول الحضارة القديمة ، لأنها عقيدة (عسكرية) ، تخدم الجنود المحاربين ، أكثر مما تخدم الزارعين المرتبطين بالأرض ، والمنتظرين حكم هذه الأرض على عملهم ، بالتأييد أو الإنكار .

وإذا أتيح لهذه الديانة الزرادشتية أن تنتقل بعد ذلك إلى بلاد كالصين ،

---

(١) عباس محمود العقاد : الله (مرجع سابق) ، ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

فقد كان لابد أن تنتقل إليها فى عصر تطورها نحو العسكرية ، فى صورة من صور الهجوم أو الدفاع ، وكان لابد أن تنتقل إليها - أيضاً - محرفة بعض الشىء ، لتناسب الحياة فى أرض الصين .

والديانة الزرادشتية « فى الأصل ديانة موحدة ، ثم تطورت إلى ديانة ثنوية ، ونشأ عنها الديانة الصرفانية ، ثم الديانة المانوية .

وفى الديانة الزرادشتية المتأخرة ، عقيدة ثنوية غالية ، تقول بوجود قوتين روحيتين اثنتين ، إحداهما للخير ، والأخرى للشر ، وتقول أيضاً بالتناقص أو التعارض بين الأشياء ، كالنور والظلمة ، والليل والنهار »(١).

وكان المجوس - قبل زرادشت - يعتقدون أن هرمز (رمز النور إله الخير)، وأهرمن (رمز الظلام إله الشر)، ولدان لإله واحد قديم، يسمى (زوران)، يرمز إلى الزمان ، وأن الحقد والحسد بينهما كأخوين ، أدى إلى حروب ، بدأت قبل مولدهما .

وهكذا استخلص زرادشت « من أخلاط المجوسية ، عقيدة وسطاً بين العقيدة الوثنية الأولى ، والعقيدة الإلهية الحديثة ، سواء فى تصحيح الفكرة الإلهية ، أو مسائل الأخلاق ، ومسائل الثواب والعقاب .

فالله فى مذهب زرادشت ، موصوف بأشرف صفات الكمال، التى يترقى إليها عقل بشرى ، يدين على حسب نشأته ، بالثنائية ، وقدم العنصرين فى الوجود » (٢) .

« وخلاصة ما جاء به (زرادشت) من جديد فى الديانة، أنه أنكر الوثنية،

---

(١) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ، ص ٧١
(٢) عباس محمود العقاد : الله (مرجع سابق) ، ص ٧٣ .

وجعل الخير المحض من صفات الله ، ونزل بإله الشر إلى مادون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى »[1] .

وجرياً على سنة المجوسية ، « حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان، وقدس النار ، على أنها هى أصفى وأطهر العناصر المخلوقة ، لا على أنها هى الخلاق المعبود »[2] .

وهكذا كانت الزرادشتية — كالمجوسية — عقيدة الفرس قبل الإسلام، وكانت هذه العقيدة، ككل عقيدة غير دينية وغير سماوية، تعكس ظروف الزمان والمكان، بالنسبة لقوم معينين ، وكأن مثلها الأعلى هو (الصراع) بين الخير والشر ، وكانت (النار) معبودهم المفضل، والنار كانت - دوماً - رمزاً للقوة والعنف والبطش والغضب . . والتطهير ، لإخراج الناس من (الظلام) إلى (النور) .

الله عند الهنود :

والعقيدة الدينية فى الهند تجمع بين روحانية العقيدة الصينية وأخلاقياتها، وبين خشونة العقيدة الفارسية وعنفها .

ومرجع هذه الوسطية فى عقيدة الهنود هو طبيعة الهند ذاتها ، وواقعها الجغرافى ، حيث « يختلف الجو فى الهند، من البرودة الشديدة فى الجبال، إلى ما يشبه جو الصحراء فى الوسط والجنوب » [3] ، إلا أن اختراق الأنهار لأرضها ، قد ملأ تلك الأرض بالخير ، وأطمع فيها الطامعين ، من قديم .

فهى بلد زراعى ، قريبة ظروف الحياة فيه، من ظروف الحياة فى الصين، ومن هنا كان الجانب الروحى فى عقيدة الهنود .

---

(١) المرجع السابق ص ٧١ .
(٢) المرجع السابق، ص ٧٤ .
(٣) دكتور محمد قدرى لطفى (مرجع سابق) ، ص ١٥٨ .

ولكن خيرات أرض الهند، جعلتها مطمعاً للطامعين منذ أقدم العصور، مما جعل ظروف الحياة فيها تقترب — من ناحية أخرى — من ظروف الحياة فى فارس، ومن هنا كان جانب الخشونة فى عقيدة الهنود، وإن كانت خشونة تفرضها حاجات الدفاع، لا حاجات الهجوم والعدوان، وهو دفاع يبدو فيه من السلبية أكثر مما فيه من الإيجابية .

و « كان الجنس السامى يسكن أودية أنهار الهند الخصيبة، منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد»، كما «يتحدث المؤرخون عن غزوات آرية، اتجهت من وادى الدانوب فى أوروبا، عبر البسفور، إلى بلاد مابين النهرين، ثم فارس، ثم إلى وادى البنجاب، وكان ذلك فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد» (١) .

وقد تعددت العقائد الدينية الهندية، نتيجة لما مر بها من ظروف تاريخية طويلة .

فهناك العقيدة الهندية الأصيلة، الناتجة عن تقدم الإنسان حضارياً على أرضه، وسيطرته على هذه الأرض، وهذه العقيدة تقترب من عقيدة الصينيين والمصريين .

« وقد شملت الديانة الهندية القديمة، على أنواع شتى من الآلهة»، « ففيها آلهة تمثل قوى الطبيعة، وتنسب إليها، فيذكرون إله المطر»، «وكذلك يذكرون إله النار، وإله النور، وإله الريح، وإله البحار، ويجمعونها فى ديانة شمسية، تلتقى بأنواع شتى من الديانات» (٢) .

كذلك عبدوا « الحيوان، على اعتباره جداً حقيقياً أو رمزاً للأسرة، ثم للقبيلة» (٣) .

---

(١) دكتور سعد مرسى أحمد، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ص ٥٨ .
(٢) عباس محمود العقاد : الله (مرجع سابق) ، ص ٥٤ ، ٥٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

« واشتملت البرهمية القديمة على عبادة الأسلاف ، كما اشتملت على عبادة المظاهر الطبيعية ، فتقديس الملك عندهم إنما هو تقليد موروث من تقديس جد القبيلة ، تحول إلى تقديس الرئيس الأكبر فى الدولة ، بعد أن تحولت القبيلة إلى الأمة »(١) .

وواضح هنا الشبه بين هذه العناصر فى عقيدة الهنود ، وتلك العناصر نفسها ، كما رأيناها فى عقيدة الصينيين ، وكما سنراها فى عقيدة المصريين فيما بعد .

ورغم أن الهند أبعد عن مركز الحضارة العالمى من فارس ، إلا أنها دخلت التاريخ المدون، وعصور الحضارة ، قبلها بقرون طويلة، وذلك لخصوبة أرضها ، وإغرائها للهجرة البشرية الأولى بالتوجه إليها ، وهو ما لم تشهده فارس إلا فى عصور متأخرة — كما سبق .

وقد حمل الغزاة الآريون معهم ، فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، كتاب (الفيدا) ، وفرضوه على الهنود ، ومنه أخذت فكرة وحدة الوجود وتناسخ الأرواح .

ومن الفيدا ، الذى لم يكن مناسباً للعقلية الهندية ، ولا لعقيدة الهنود ، استخرج بعض الكهنة « ديانة جديدة ، أطلقوا عليها (البراهمانية) ، نسبة إلى براهمان » . « وقد بدأ الكهنة هذه الديانة ، بتعقيد الطقوس البسيطة المعروفة فى الفيدية ، بطريقة أدت إلى إيجاد نظام طبقى صارخ »(٢) ، كانت أقل الطبقات شأناً فيه ، هى طبقة (المنبوذين)، التى ظلت منبوذة بين الهنود طيلة مايقرب من ثلاثين قرناً ، حتى حررهم غاندى (١٨٦٩ — ١٩٤٨) ، فى كفاحه ضد الاستعمار الانجليزى ، فى القرن العشرين .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٢) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ، ٥٩ .

وفى البراهمانية ، نجد اقتراباً من مذهب (التوحيد) ، الذى سنراه فيما بعد فى مصر القديمة ، فالله فيها « هو (ذات) على كلتا الحالتين ، يتشبث بها العابد ، أو يستسلم لقضائها ، فتسهر عليه ، وإن غفل عنها » .

إلا أن هذا (الإله) الواحد فيها يتسمى « بثلاثة أسماء ، على حسب فعله فى الوجود » ، كما أن القضاء والقدر فيها « يسرى على الآلهة ، كما يسرى على البشر ، ويتخلغل فى طبائع الخالقين ، كما يتغلغل فى طبائع المخلوقات »(١) .

فالله وخلق الله — على هذا الأساس — فى البراهمانية — سواء .

كذلك لا يؤمن الهنود — ولا تؤمن البراهمانية — بأن هناك حياة بعد الموت ، وبالتالى بأن هناك حساباً ، أو يوماً آخر ، وإنما هم يؤمنون ـ وتؤمن ـ بتناسخ الأرواح ، أى بأن الروح بعد فناء الجسد بالموت ، لا تموت ، وإنما هى تنتقل إلى جسم آخر ، وهكذا ، وبهذا (الفناء) الجسدى ، (تتجدد) الحياة الإنسانية على الأرض .

وفى أخريات القرن السادس قبل الميلاد ، ظهرت البوذية فى الهند ، ولم يكن فى ظهورها إضافة إلى العقيدة الهندية ، كما كان الحال فى البراهمانية ، وإنما كان فيه تبسيط لها ، وإيصال بتعاليمها وأخلاقها إلى الرجل العادى ، أو (رجل الشارع) ، بدلا من احتكارها على يد الكهنة ، فقد « قامت على أساس البرهمية فى كل عقيدة من عقائد الأصول ، وإنما تميزت البوذية بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب ، غير طبقات الكهان »(٢) .

الله . . فى مصر القديمة :

ومصر أسبق على طريق الحضارة من الهند وفارس والصين ، من ثم

(١) عباس محمود العقاد : الله (مرجع سابق) ، ص ٥٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

فهى أقدم فى العقيدة الدينية ، وفى فكرة الله ، من هذه المجتمعات الثلاثة، وغيرها من المجتمعات القديمة .

وفى مصر ، تفجرت الثورتان : الزراعية والصناعية ، قبل أن تتفجر فى غيرهما من هذه المجتمعات بقرون طويلة ، وذلك لأن (توسطها) من حيث الحرارة والبرودة ، ومن حيث ربطها بين الشرق والغرب — جعلها محطاً للهجرات البشرية منذ أقدم العصور .

يضاف إلى ذلك ، أن تدفق نهر النيل من شمالها إلى جنوبها ، قد حول صحراءها القاحلة ، إلى جنة وارفة خضراء، مما كان مصدر خير لها، ومصدر شر لها فى نفس الوقت .

وقد كان مصدر خير لها ،لأنه جعلها تسبق غيرها من المجتمعات القديمة على طريق الحضارة والمدنية .

وكان مصد شر لها ، لأنه جعلها مطمع الطامعين من أقدم العصور ، منذ بدأ ظهور الامبراطوريات فى العالم القديم . . وقد ظلت إلى اليوم - بسبب موقعها الجغرافى الفريد - تدخل - رغماً عنها - طرفاً فى ذلك الصراع بين الشرق والغرب ، الذى تستنزف جزءاً كبيراً من مواردها لتبعد عنه ، وتظل محتفظة بشخصيتها القومية المستقلة .

ومصر ، كبلد زراعى ، نمت فيه العقيدة الدينية ، على النحو الذى نمت عليه فى المجتمعات الزراعية التى تحدثنا عنها من قبل ، خاصة الصين والهند، فشاع فيها « تقديس الصقر والنسر وابن آوى والقط والنسناس والجعل والتمساح ، وغير ذلك من فصائل الحيوان »[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

وهكذا « قدس المصريون القدماء الحيوانات » ، « إما رهبة منه فيتقى شره ، أو رغبة فى استرضائه ، لما يجلبه له من خير . فقد قدسوا التمساح والأسد ، كما قدسوا العجول والكباش » ، « وآمن المصريون القدماء بأن هذه الحيوانات التى عبدوها تعلم الغيب ، وتثيب وتعاقب ، بل إنها تتكلم ، لتنقذ شخصاً على وشك الهلاك . وكما تكلمت الحيوانات المؤلهة والطيور ، فقد تكلمت بعض النباتات ، كالأشجار التى حلت فيها أرواح الآلهة » ، ولذلك « عبد المصريون شجرة الجميز والنخلة ، وقدموا للشجر قرابين من الخيار والعنب والتين »(١) .

كذلك شاعت فى مصر القديمة بعد ذلك « عقيدة الأرواح ، فكان المصريون من أعرق الأمم ، التى آمنت بالبعث ، والثواب والعقاب بعد الموت »(٢) — وهو عكس ما رأيناه عند الهنود ، الذين آمنوا بانتهاء الحياة بالموت ، وانتقال روح الميت ، لتحتل جسداً حياً .

ويرى المرحوم عباس العقاد أن « أثبت العبادات وأعمقها وأقواها وأبقاها إلى آخر العصور ، هى عبادة الموتى والأسلاف دون مراء . فإن عناية المصرى بتشييد القبور ، وتحنيط الجثث ، وإحياء الذكريات ، لا تفوقها عناية شعب من الشعوب »(٣) .

وهى عبادة ليست غريبة على شعب زراعي ، قطع سهماً وافراً فى طريق الحضارة والمدنية ، وهو يؤمن — كما رأينا فى شعب الصين من قبل — بأن ما ورثه عن هؤلاء الآباء من معارف ومعلومات ، ووسائل تكنولوجية

---

(١) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ، ص ٧٧ .
(٢) عباس محمود العقاد : الله (مرجع سابق) ، ص ٤٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

للسيطرة على البيئة ، وتسخيرها لخدمته ، والاستفادة بها إلى أقصى حد ممكن — زاد فعال له فى معركة الحياة .

ووصل المصريون القدماء إلى فكرة التوحيد فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فى وقت كان العالم القديم كله لايزال يحبو على أولى درجات العقيدة.. وظهر هذا التوحيد فى عبادة الشمس، التى «كانت رمزاً محسوساً للإله الواحد الأحد ، المتفرد بالخلق فى الأرض والسماء . . وإنما جاء هـذا الطور بعد تمهيدات دينية وسياسية ، تهيأت لمصر ، ولم تتهيأ لغيرها من الدول الكبرى فى تلك الفترة »(١) .

كذلك عبد المصريون الملك أو الفرعون .

وليس ذلك غريباً على مجتمع تكونت فيه (الدولة القومية) ، وأصبحت لهـا وظائف واضحة فى تحقيق التقدم ، وفى حماية الوطن والمواطن من أعدائهما الكثيرين .

وكان الملك أو الفرعون على رأس هـذه (الدولة) . ومن ثم كانت الآمال المعلقة عليه فى هذا المجال كثيرة .

« وبتأ ليه الفرعون حياً ، أصبحت عليه التزامات ، لعل أهمها مباشرة الطقوس الدينية اليومية ، حتى يستمر النيل فى مده مصر بالحياة ، وحتى يستمر الزرع ينبت ، والشمس تشرق وتغرب . وعبد المصريون الفرعون حياً » ، « وذهل المصرى القديم عندما وجد الملك يموت» ، « وأفتى الكهنة أن الفرعون لا يموت كما يموت الناس ، فإذا عجز جسده المـادى عن القيام بالأنشطة العادية ، يخرج منه السر الإلهى ، أو الروح المقدس، ليحل فى جسم ابنه الشاب الممتلئ حيوية . على أن الفرعون بعد موته يظل ينصح ابنه الحى ،

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

ويوجهه فى كل أمور الحكم ، من مكان إقامته فى مملكة الموتى ، مملكة أوزوريس . وكان المفروض أن تعود الروح - متى شاءت - من عالم الموتى إلى عالم الأحياء ، من خلال فرجة فى القبر ، فتخرج ، ثم تعود إلى الجسد، الذى يجب أن يكون دائماً مهيأ لاستقبالها ، ولذلك عنى المصريون أشد العناية بالتحنيط ، ثم صنع التماثيل ، وإلا تاهت الروح وتشردت ، إذا حل التحلل بالجسد »(١) .

ومن ثم فأهرامات مصر ، ومقابر الموتى المصريين وتماثيلهم وكنوزهم، ليست دليل حضارة وتقدم علمى فقط ، وإنماهى - قبل ذلك وبعده - شواهد على عقيدة دينية ، كان لابد أن تمهد الطريق لهذه الحضارة المصرية القديمة وترعاها .

منزلة الدين ورجاله فى الحضارات القديمة :

ولعل هذا الذى رأيناه عن فكرة (الله) وتطورها فى بعض الحضارات القديمة ، يؤكد لنا حقائق هامة ، تعرضنا لبعضها فى الكتاب الأول من هذه السلسلة ، كما تعرضنا لبعضها الآخر فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، وفى مقدمة الفصل الثانى .

ولم نتحدث عن فكرة (الله) فى كل الحضارات القديمة ، لأن ذلك أمر يطول(٢) ، وإنما اكتفينا بحضارات ثلاث ، يفصل بين كل منها وبين الحضارتين الأخريين ، فواصل فى الزمان والمكان والمناخ العام .

ورغم هذا الفاصل الزمانى والمكانى ، فقد رأينا فكرة (الله) فى كل

---

(١) دكتور سعد مرسى أحمد، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ص٧٧، ٧٨ .

(٢) لو بحثنا فى كل الحضارات القديمة ، لوجدنا فكرة (الله) متأثرة بالعقيدة السائدة فى كل مجتمع ، والشخصية القومية ، التى حددتها ظروف حياة أبنائه ... كما رأينا فى المجتمعات التى تحدثنا عنها تماما .

حضارة ، جزءاً من عقيدة دينية راسخة ، وأن هذه العقيدة الدينية الراسخة، قد صنعتها ظروف الزمان والمكان والمناخ العام ، وأنها كانت (تفسيراً) للحياة ، يتفق مع ظروف الزمان والمكان والمناخ العام ، أكثر مما يتفق مع العقل والمنطق ، أو مع التفسير الصحيح للحياة ، كما رأته الأديان السماوية ، كما سنرى فيما بعد فى الفصل التالى .

ومن تلك الأهمية التى احتلتها العقيدة الدينية فى العصور القديمة ، اكتسب الكهنة ورجال الدين أهمية خاصة فى حياة مجتمعاتهم ، فكانوا هم قادة الرأى ، وحماة النظام ، والساهرين على الحضارة .

لقد كان العلم فى هذه المجتمعات عموماً - كما كان الحال فى مصر ، أكثر المجتمعات القديمة تقدماً على طريق الحضارة والمدنية - جزءاً من الدين(١)، « ومن هنا اختلط العلم بالدين ، واصطبغ بلون من الغموض والسحر والتصوف »(٢) .

وحتى الفلسفة ، التى هى عمل عقلى خالص ، « لم تكن فلسفات بالمعنى الفلسفى الدقيق ، بقدر ما كانت ألواناً من الحكمة ، وضروباً من المبادئ والقواعد ، مما كان يتصل من قريب أو من بعيد ، بالدين والعقائد »(٣).

وفى مصر القديمة ، « كان الكاهن هو العالم ، وهو الفيلسوف ، وهو

(1) SMITH, WILLIAM A. : Ancient Education; Philosophical Library, New-York, 1955, pp. 27, 28.

(٢) الدكتور عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى — الطبعة الثانية — مطبعة لجنة البيان العربى — ١٩٦٦ ، ص ٦١ .

(٣) رينيه ديكارت : مقال عن المنهج — ترجمة محمود محمد الخضيرى — الطبعة الثانية — راجعها وقدم لها الدكتور محمد مصطفى حلمى — من (روائع الفكر الإنسانى) — دار الكاتب العربى للطباعة والنشر — ١٩٦٨ ، ص ٣ ، ٤ — من التقديم ، للدكتور محمد مصطفى حلمى .

الطبيب ، وهو الفلكى والرياضى » ، « وذلك لأن العلم كان عندهم مختلطاً بالدين والفلسفة »(١) .

وقد وصل نفوذ الكهنة - باسم الدين - مداه فى مصر القديمة ، فهم لم يكتفوا بتوجيه السياسة العامة ، واحتكار العلم والفلسفة والتعليم والبحث العلمى ، بل تجاوزوا ذلك فى مصر ، إلى حد أن « شارك الكهنة فى استنزاف ثروات الدولة ، على حساب طبقات الشعب الكادحة ، وبلغت سلطة الكهنة أن تولى أحدهم الحكم ، وتحولت الامبراطورية المصرية إلى حكومة دينية ، يفتعل الدين فيها ماشاء له الهوى ، وباسم الدين والكهنوت ، تقلصت الحياة ، وبدأ معين الثروات ينضب ، وتزداد البلاد فقراً ، فلم يكن الكهنة على مقدرة سياسية أو عملية ، تتيح لهم الإبقاء على الثروات »(٢) .

بيد أن نفوذ الكهنة لم يصل إلى هذا الحد فى كل عصر ، ولا فى كل وقت ، ولا فى كل مجتمع قديم .

كما أن نفوذهم لم يؤد - إلا قليلا — إلى هاوية ، وإنما كان مؤدياً دوماً إلى حضارة وتقدم .

ولكنها عصور الضعف ، التى يفلت فيها (الزمام) ، فلا يكون هناك شىء فى الحياة يسير على قواعد المنطق .

وفى تلك العصور — عصور الضعف — لا تحسب مثل تلك الظاهرة غير العادية على النظام ، وإنما هى (نشاز) فيه ، سرعان ما يزول .. لتعود المياه إلى مجاريها .

---

(١) السيد محمود أبو الفيض المنوفى : أصالة العلم ، وانحراف العلماء — رقم (٤) من (موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم) — دار نهضة مصر للطبع والنشر — ١٩٦٩ ، ص٦.

(٢) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ، ص٨٠.

الفصل الثالث

الله . . . فى الديانات السماوية

تقديم :

ولم يترك الله سبحانه الإنسان - منذ خلقه - فى حيرته ، فقد ضمن له أن يهديه إلى طريقه العقائدى الصحيح ، طريق الله ، تماماً كما ضمن له الطعام والشراب ، وغيرهما من وسائل حياته اليومية .

وكان الله سبحانه يعرف أن الإنسانية فى أيامها الأولى طفلة ، ومن ثم لابد أن تضل فى الوصول إلى الحقيقة ، ولذلك تتابعت رسله سبحانه إلى الناس ، فى طفولة الإنسانية هذه ، « فكان لا يكاد يخلو مجتمع حينذاك من رسول ؛ ولا تعيش قرية من غير نبى .. وذلك لأن الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى الرعاية والعناية فى طور طفولته ، وهو فى هذا الدور من حياته ، إن لم يجد من يرعاه ، ويقوم على توجيهه ، هلك ، أو بات فى معرض الهلاك .

وكذلك الإنسانية فى طفولتها ، تكون غيرها حين تشب وترشد » (١).

والقرآن الكريم ذاته ، يؤكد هذه الحقيقة الكونية والتاريخية ، فيما يوجهه من حديث إلى خاتم الأنبياء والرسل ، عليه وعليهم الصلاة السلام :

— « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله ، قضى بالحق ، وخسر هنالك المبطلون » (٢) .

---

(١) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا (مرجع سابق) ، ص ٩١ .
(٢) قرآن كريم : غافر — ٤٠ : ٧٨ .

كان هؤلاء الرسل كثيرين كثيرين ، وكانوا يتنزلون بأمر الله، لإصلاح العقيدة ، وإصلاح ماتنتج عن فسادها من عيوب اجتماعية ، « ومن ثم يتفق الرسل جميعاً فى الجوهر ، ثم يختلفون بعد ذلك اختلافات (نوعية) ، حسب المرض الاجتماعى الذىاستشرى بسبب فساد العقيدة . وقد اختلف هذا المرض من مجتمع إلى آخر »(١) .

جوهر الديانات السماوية :

رأينا فى الفصل السابق ،مابين الديانات غير السماوية من اختلافات(٢)، لأنها لاتعدو أن تكون (فلسفات) ، أو (تفسيرات) للحياة ، تناسب ظروف الزمان والمكان الذى ظهرت فيه. أما رسالات السماء (٣) ، فمصدرها واحد ، هو السماء ، ورب السماء والأرض ومابينهما ، ورب كل المخلوقات. ومن ثم لم تختلف رسالة من رسالات السماء عن غيرها من الرسالات، فى جوهر القضية ، أو فى أصولها ، وإن اختلفت بعد ذلك فى فروعها وشكلياتها، حسب ظروف الزمان والمكان .

فهى رسالات يكمل بعضها بعضاً ، ولا يتنافر بعضها مع البعض الآخر ، وهى نسيج متكامل ، يكمل آخره أوله ، ويأخذ منه ويعطيه .

وقد أحسن القرآن الكريم التعبير عن هذه الحقيقة التاريخية والكونية، حيث ختم حديثه عن الأنبياء والرسل ، بقوله :

— « إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » (٤) .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٦٢ .

(٢) ارجع إلى ص ٤١ — ٥٤ من الكتاب .

(٣) لناعود إلى هذه الرسالات ، فى كتاب من هذه السلسلة ، نخصصه بإذن الله للحديث عن (أنبياء الله) — أما الحديث عن هذه الرسالات هنا ، فسريع ، حتى لا نبتعد عن موضوعنا الأصلى ، وهو (الله) .

(٤) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٩٢ .

— « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك : إن ربك لذو مغفرة ، وذو عقاب أليم »(١) .

وكانت الديانات غير السماوية — كما سبق — تفلسف واقعاً معيناً ، بكل ما فيه من خير وشر ، وكانت فى فلسفتها هذه تخدم النظام القائم ، والطبقة الحاكمة ، بطبيعة الحال .

أما رسالات السماء ، فقد كانت تأتى لتهدم ما أقامه الظلم والطغيان والجهل ، من بنيان عقائدى ، مقام على غير أساس .

ومن ثم كانت الديانات غير السماوية تسهر الدولة — والنظام — على نشرها ، والترويج لها ، وغرسها فى نفوس الكبار والصغار .

أما رسالات السماء ، فكانت تصطدم أول ما تصطدم بالنظام وبالسلطة :

— « تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم »(٢) .

— « ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ، ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ؟ »(٣) .

— « ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون »(٤) .

ولم يكن اصطدام رسالات السماء بالنظام هدف الأهداف ، وإنما كان تصحيح الوضع الخاطىء هو الهدف .

---

(١) قرآن كريم : فصلت — ٤١ : ٤٣ .
(٢) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٦٣ .
(٣) قرآن كريم : الرعد — ١٣ : ٣٢ .
(٤) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٤١ .

وفى تصحيح الوضع الخاطئ مس بالمصالح المكتسبة للطغمة الحاكمة ، وللقريبين منها ، ولفئات أخرى كثيرة من الناس ، يرتبط وجودها، وترتبط حياتها ، بهذا النظام(١) .

وفى تصحيح الوضع الخاطئ كذلك هدم للتقاليد ، والتقاليد عزيزة على كل الأطراف التى تعيش بينها هذه التقاليد ، مستفيدة كانت من هذه التقاليد ، أم مضيرة منها .

وكان كل رسول يتنزل بمعجزة من المعجزات ، تناسب ظروف الزمان والمكان ، وتبين للناس صدق الرسالة والرسول ، وتبين لهم أن الرسالة والرسول إنما هما من عند الله ، الذى يجب أن يكون محور العقيدة، لاسواه.

وكان أنبياء الله ورسله يجتذبون إليهم خير من فى مجتمعاتهم من بشر ، لا من حيث القوة والنفوذ ، ولا من حيث الغنى ، بل من حيث الاقتراب من الفطرة .

وكان هؤلاء المهديون الأوائل عادة من الفقراء والمستضعفين .

ولم يكن ذلك بالأمر الغريب ، فالفقراء والمستضعفون — بطبيعتهم — أكثر لجوءاً إلى الله ، وهم — عملياً — أكثر حاجة إليه ،من الأغنياء وذوى النفوذ .

ذلك أن الغنى قد يجد فى ماله مأمناً له من غدرات الزمان،وأن ذا النفوذ والسلطان قد يجد فى جنده وأتباعه حماية له من الأعداء . أما الفقير، فلا يجد بين يديه ما يطمئن به على يومه وغده ، والمستضعف لا يجد نفسه إلا ضحية لصاحب السيف والسلطان والجنود ، ومن ثم يجد هذا وذاك فى الله ملجأ يلجأ دائماً إليه من بطش هذا ، وتجويع ذاك .

(١) لعلنا نذكر هنا أن آزر ، والد سيدنا ابراهيم ، كان يرتزق من صناعة الأصنام .

فإذا ما جاء الرسول،كان الفقير المستضعف أسرع إلى الإيمان به من سواه:

— « قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ قال : وما علمى بما كانوا يعملون ؟ إن حسابهم إلا على ربى ، لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين »(١) .

— « فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين . قال : يا قوم ، أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده ، فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون ؟ »(٢) .

ويقع صدام ، لابد أن يقع ، بين الرسول ، ومعه القلة المستضعفة التى آمنت به ، وبين الكثرة القوية ، التى يحميها السلطان ، ويتوفر لديها المال والرجال ، ولكن نتيجة الصدام لا تأتى على السنة التى ألفها هؤلاء وهؤلاء، بل على السنة التى أرادها الله سبحانه ، وهى أن الحق لابد أن ينتصر ، لأنه مؤيد من السماء ورب السماء :

— «قل: سيروا فى الأرض، فانظروا : كيف كان عاقبة المجرمين؟ »(٣).

— «قل: سيروا فى الأرض، فانظروا : كيف كان عاقبة المكذبين؟»(٤).

---

(١) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ١١١ — ١١٥ .

(٢) قرآن كريم : هود — ١١ : ٢٧ — ٣٠ .

(٣) قرآن كريم : النمل — ٢٧ : ٦٩ .

(٤) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٣٦ .

— « ولقد استهزئ برسل من قبلك، فأمليت للذين كفروا، ثم أخذتهم، فكيف كان عقاب؟ »(١).

ومثلما تتفق الرسالات السماوية -في جوهرها- على أن الله واحد، لا شريك له، وعلى أن قافلة الإنسانية لن تتمكن من الحياة النظيفة على الأرض، إلا إذا هي عادت واتجهت إليه وحده، فإنها تتفق أيضاً على أن الرسل، الذين أتوا بهذه الرسالات، ليسوا إلا بشراً من بني آدم، لا يزيدون عن هؤلاء البشر شيئاً ولا ينقصون.

وقد كانت (بشرية) هؤلاء الرسل، من الأمور التي اعتبرها الكافرون والمكابرون، نقطة ضعف في هذه الرسالات، ومن أجل هذه البشرية — على حد زعمهم — لم يؤمنوا:

— « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون؟ وكان ربك بصيراً. وقال الذين لا يرجون لقاءنا: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا؟ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً »(٢).

وإذا كان هؤلاء الرسل، والذين آمنوا بهم، قد انتصروا على جحافل الشرك، فقد كان انتصارهم بأمر الله وحده:

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما كانوا خالدين. ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء، وأهلكنا المسرفين »(٣).

---

(١) قرآن كريم: الرعد — ١٣ : ٣٢.
(٢) قرآن كريم: الفرقان — ٢٥ : ٢٠، ٢١.
(٣) قرآن كريم: الأنبياء — ٢١ : ٧—٩.

— « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله المؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية . إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة ، وتعيها أذن واعية »(١) .

وقد نصر الله سبحانه هؤلاء ، ودحر هؤلاء ، تأكيداً لذلك القانون السماوى المحكم ، الذى جعل فيه الله سبحانه الحق يحمل بين دفتيه عوامل بقائه ونمائه ، وجعل فيه الباطل يحمل فى أحشائه جرثومة فنائه .

وهو قانون كونى ، لم يقصره الله على بنى آدم ، وإنما جعله قانوناً للحياة ، حيثما كانت هذه الحياة(٢) .

فالمؤمنون ينتصرون بهذا القانون الإلهى المحكم ، والكافرون يهزمون به أيضاً .

ومن ثم يكون جوهر رسالات السماء ، هو إعادة الجنس البشرى إلى هذا القانون السماوى الكونى الخالد ، حتى لا يبيد هذا الجنس البشرى ، ويوم يعطل هذا القانون ، فإنها تكون الساعة ، وتكون نهاية الحياة البشرية على الأرض .

ما بعد رسالات السماء :

وتتابع رسالات السماء فى أيام البشرية الأولى يدل على أمرين :

---

(١) قرآن كريم : الحاقة — ٦٩ : ٤ — ١٢ .

(٢) لناعود إلى هذا القانون ، فى الكتاب القادم من هذه السلسلة ، الذى سنخصصه للحديث عن (الكون) ، بإذن الله .

— أولهما أن القوم كانوا يرتدون — بسرعة — عن ذلك القانون الإلهى المحكم — قانون التوحيد — ويعودون — بسرعة — إلى عبادة الأصنام والأوثان من جديد .

— وثانيهما أن الله سبحانه حريص على إقامة ذلك القانون ، حرصه على بقاء الجنس البشرى على الأرض ، ومن ثم كان تعطيل ذلك القانون دافعاً إلى إرسال من يعيد إليه الحياة مرة ثانية ، فتعود به الحياة على تلك الأرض .

وليس غريباً أن يتعطل القانون السماوى، وإنما الغريب ألا يتعطل ذلك القانون ، فى حياة أرضية ، أريد لها أن تكون كذلك ، منذ خلق الله آدم، وهبط به — نتيجة لخطئه — إلى الأرض ، ليعيش عليها هو وذريته :

— « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس ، أبى أن يكون مع الساجدين . قال : يا إبليس ، مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال : فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال : رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال : هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدكم أجمعين »[1] .

---

(١) قرآن كريم : الحجر — ١٥ : ٢٦—٤٣ .

وقد يقول قائل : ولم خلق الله الخير والشر ، ولم يجعل الحياة خيراً محضاً ؟

— وإذا كان الله سبحانه قد اختار الإنسان خليفة له فى الأرض ، فلم سلط عليه إبليس ، ليصرفه عن الطريق الذى أراده له — طريق الخير والرشاد ؟

— وإذا كان الله سبحانه قد جعل انتصار الخير على الشر ، والحق على الباطل ، قانوناً وناموساً ، فلم كان هذا الصراع منذ البداية ؟

ورغم مافى هذه الأسئلةوغيرها ـوهى واردة واردة ـمن تدخل لا يليق فى شأن من شئون الله ، فإن له — سبحانه — قطعاً — فيها حكمة ، فهو سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ، وقصور عقلنا البشرى المحدود عن فهم الهدف والغاية من صنع الله هنا وهناك ، لا يعد قصوراً فى الصنع ، وإنما هو قصور فى العقل والفهم الإنسانيين .

ومع ذلك ، فإن سنة الله فى الكون من حولنا تدلنا على الإجابة .

لقد أراد الله للخليفة الذى اختاره هذا الصراع ، ترقية له باستمرار ، « فالله خلق السم والترياق ... ثم إنه سبحانه جعل فى هذا التحدى العدوانى المستمر مصلحة ومنفعة . . إذ أن سم الميكروب يحفز النسيج الحى إلى الاحتشاد ، كما تدفع لسعة البرد الدم إلى الشرايين . . وبذلك جعل الله من عدوان الطبيعة حافزاً مستمراً لمخلوقاته ، لتحتشد ولتبتكر ، ولتبدع أحسن ما تختزن من طاقات ، فتكون بذلك دائماً على أكمل صورة .. ومن الصراع بين الجسم والميكروب ، تنشأ الحصانة والمقاومة .

ولو أن الحياة الدنيوية سلمت من الأعداء ، وأخلدت إلى الراحة والأمن والدعة ، لترهلت وتخنثت ، وضعفت وانقرضت .. وهو المصير المألوف الذى نشاهده فى الأفراد ، كما نشاهده فى الأمم ، حينما تخلد إلى

الترف والملذات . . ولهذا يغرس الله الأشواك فى الأمم ، لتخرج منها الورود . . »(١) .

وهكذا يرتبط هذا القانون الكونى بالحياة الأرضية ،منذ كانت هذه الحياة الأرضية ، ترقية لهذه الحياة ، وهو « قانون ثابت ، يعمل فى الفرد والمجتمع ، والطبيعة والتاريخ : هو دفع المتناقضات بعضها ببعض » . وقد « ذكر القرآن هذا القانون وحدده ، لأكثر من ألف وثلاثمائة سنة ، قبل أن يتكلم عنه هيجيل موسعاً ، تحت عنوان Dialectical Idealism ، أو المنطق الجدلى المثالى . . وكان فى ظن هيجيل أن هذا القانون يعمل فقط فى عالم الفكر . . ثم جاء ماركس ليقع فى ضلال آخر ، فيتصور أن القانون يعمل فى المادة، وأنه جدل مادى، وأعطاه اسم DialecticalMaterialism ، أو المنطق المادى الجدلى ، ثم وقع ماركس فى خطأ ثان، فتصور أن القانون يعمل بذاته ، وأنه هو الذى خلق من المادة كل صور الحياة ، من نبات وحيوان وإنسان . . . » . « وكل هذه الأخطاء لانجدها فى القرآن ، الذى أشار إلى القانون منذ ألف وأربعمائة سنة ... فالقرآن يعلمنا أولا أن هذا القانون شامل ، لا هو مادى ، كما يقول ماركس ، ولا مثالى كما يقول هيجيل . . . ثانياً . . أن هذا القانون مخلوق وليس خالقاً ... فهو مجرد أداة فى يد الله ، يصلح بها حياة خلقه، ويحرك بها الأحداث نحو توازن محمود ، بين مختلف القوى ، لكيلا يطغى طرف على طرف »(٢) .

ومن ثم كانت الردة عن رسالات السماء، بعد فترة طالت أو قصرت، هى القاعدة ، ولم يكن الثبوت على الرسالات هو القاعدة .

كانت الردة هى القاعدة ، لأن إبليس كان لابد أن يثبت أنه خير من هذا الإنسان ، الذى أمره الله أن يسجد له ، وكان من حق إبليس على الله أن ينال

---

(١) مصطفى محمود : من أسرار القرآن — العدد(١١٥) من (كتاب اليوم) — مؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة — سبتمبر ١٩٧٦ ، ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧ — ٩ .

ما يريد،وكان من حكمة الله — منذ البداية — أن يحدث ماحدث ويحدث، تنقية للحياة الإنسانية ، وارتقاء بهذه الحياة .

وطرق الشيطان فى الوصول إلى بنى آدم كثيرة ، وهى — فى الوقت ذاته — ميسورة عليه :

— « وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على،لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب ، فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا »(١) .

— « قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولاتجد أكثرهم شاكرين »(٢) .

فليست مشكلة أن يسيطر الشيطان على الإنسان ويغويه، ولكن المشكلة هى أن ينجو الإنسان من بين براثنه .

ومن ثم كانت حياة المؤمن جهاداً كلها — جهاداً ضد الشيطان وضد زبانيته ، ولم تكن أبداً حياة مفروشة بالورود .

إن حياته جهاد للنفس ، أن يتسرب الشيطان إليها ، فى صورة فكرة أو كلمة أو نظرة أو سماع أو عمل .. لا يرضى عنها الله ، وجهاد لقوى الشر

---

(١) قرآن كريم : الإسراء — ١٧ : ٦١ — ٦٥ .
(٢) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١٦ ، ١٧ .

فى المجتمع وفى الحياة ، التى سيطر عليها الشيطان بالفعل ،وهو جهاد واجب على الإنسان ، بوصفه خليفة لله فى الأرض :

ــ « قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم ، وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ،والله لا يهدى القوم الفاسقين »(١) .

ومن ثم قد يكون الإنسان مؤمناً ،ومع ذلك يستطيع الشيطان أن يتسرب إلى قلبه ، من خلال ماله أو ولده ، أو من خلال صلاته وصيامه نفسيهما .

ولعل أشهر المؤمنين الذين استدرجهم الشيطان فى التاريخ ، هو قارون، الذى كان أحد أقارب سيدنا موسى المقربين ، فقد كان عمه ، كما كان « من أكبر علماء اليهود ، وأفقههم بعد موسى وهارون »(٢) ، فلما أعطاه الله مالا كثيراً ،كان هـذا المـال هو مدخل الشيطان إلى نفسه ، فبدلا من أن يتخذ من هذا المـال وسيلة لإعزاز الحق ، اتخذه وسيلة للفساد والإفساد فى الأرض ، فحق عليه ما حق قبله ، وما يحق بعده ، على كل باغ مفسد ، مهما كان قوياً عزيزاً :

ــ « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه : لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن

---

(١) قرآن كريم : التوبة ــ ٩ : ٢٤ .

(٢) خليل طاهر : الأديان والإنسان ، منذ مهبط آدم ، حتى : اليهودية ــ المسيحية ــ الإسلام ــ قدم له وراجعه : فضيلة الإمام الأكبر ، الشيخ عبد الحليم محمود ــ دار الفكر والفن ــ ١٩٧٦ ، ص ١٨٢ .

الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : وى كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، وى كأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين »(١) .

وليست قصة المنافقين فى كل زمان ومكان ، إلا قصة هؤلاء المؤمنين ، الذين تسلل الشيطان إلى قلوبهم من خلال مايقومون به من طقوس وشعائر .

تحوير العقيدة :

المتتبع لتاريخ الحياة البشرية على الأرض يرى بوضوح، أن للشيطان (استراتيجية) واحدة، لا يتعداها، فى صد الناس عن سبيل الله . وقد استخدم هذه الاستراتيجية مع آدم ، حتى خرج به من الجنة ، ليعيش هو وبنوه حياة الأرض ، بكل متاعبها ، كما لا يزال يستخدمها حتى اليوم مع بنى آدم، وسيظل يستخدمها معهم ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وتتلخص هذه الاستراتيجية فى الاستدراج والمراوغة ، لا المجابهة الصريحة .

إنه لا يدعو أحداً ـ صراحة ـ إلى الكفر بالله وبأنعمه، وإنما يستدرجه إلى العصيان ، خالقاً له ألف عذر وعذراً لهذا الذى يفعله ، موهماً إياه أنه ليس عصياناً ، وإنما هو الإيمان عينه .

---

(١) قرآن كريم : القصص — ٢٨ : ٧٦ — ٨٣ .

وحينما نهى الله سبحانه آدم عن الاقتراب من الشجرة التى نهاه عن الاقتراب منها ، لم يزين الشيطان لآدم أن يفجر عن أمر ربه ، أو يعصيه ، وإنما صور له هذا الاقتراب على أنه ليس عصياناً :

— « فوسوس إليه الشيطان ، قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد ، وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها ، فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »(١) .

— « فوسوس لهما الشيطان ، ليبدى لهما ما ووری عنهما من سوءاتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ، إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما : إنى لكما لمن الناصحين . . . »(٢) .

والشيطان — إلى اليوم — لا يوسوس لمن يصلى بأن يترك الصلاة ، وإنما يوسوس له فيها ، فينشغل عنها — وهو فيها — بأمور دنياه ، ثم يوسوس له فيؤجلها ، ثم يكون تركها هو الأمر المنطقى فى النهاية .

والشيطان لم يقل لأتباع الأديان السماوية أن يعبدوا غير الله الواحد القهار ، وإلا لفشل فيما أراد ، وإنما زين فى نفوسهم أن يصنعوا تماثيل ، ينحتونها بأيديهم ، (يستحضرون) بها الله فى أذهانهم ، وفى عيونهم وأسماعهم .

وما هى إلا فترة قصيرة من الوقت ، حتى يغيب الله الواحد القهار عن القلوب ، ليبقى الصنم .

وما يقال عن الصنم الحجرى أو الخشبى فى حلوله محل الله فى القلوب ، يمكن أن يقال عن الصنم البشرى ، سواء كان حاكماً قادراً على الإعزاز

---

(١) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ١٢٠ — ١٢٢ .
(٢) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ٢٠ ، ٢١ .

والإذلال ، أو غنياً قادراً على إسالة اللعاب فى الأفواه ، بما أوتى من مال ومتاع .

وقد رأينا منذ قليل كيف كان قارون ، بكل أبهته ، مدخل الشيطان إلى قلوب الكثيرين من المحيطين به ، حيث قالوا (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنه لذو حظ عظيم) .

ويمكن أن نرى فى قصة فرعون، وسنأتى لها فى حينها فيما بعد فى الفصل التالى ، كيف كان الجاه والسلطان مدخل الشيطان إلى قلوب المحيطين به ، من الكهنة والسحرة ، ثم من سواد الشعب كله بعد هؤلاء وهؤلاء .

كان كل رسول يبعثه الله إلى قوم ، يهديهم بعد جهاد ، إلى الله الواحد القهار ، الذى لم تختلف صورته منذ آدم أبى الخلق ، وحتى محمد ، خاتم الأنبياء والمرسلين .

وكان القوم ، بعد رحيل الرسول عنهم، يجرفهم الشيطان فى تياره ، بعد أن يتسلل - بالمكر والخداع - إلى قلوبهم ونفوسهم ، فيضع فيها إلهاً آخر غير الإله الحقيقى ، الذى تعلموه ، واستيقنته قلوبهم ، من هؤلاء الرسل .

وإذا ما حل فى القلب إله غير الإله ، فإنها تكون بداية النهاية ، لأن ذلك معناه أن أمور الحياة لابد أن تسير على غير هدى ، فيحطم الإنسان أخاه الإنسان ، ويحطم الحياة والأحياء ،ويكون البقاء للأقوى، لا للأصلح.

والأقوياء دائماً راغبون فى الإذلال ، أما الصالحون فلا يرغبون إلا فى الإصلاح.

الأقوياء يذلون من يقعون تحت أيديهم ، أما الصالحون فيساعدون كل من يلقونه ، حتى ولو كانوا لهم عدواً.

الأقوياء لا يعرفون خيراً ، حتى يحبوه لغيرهم أو لأنفسهم ، أما الصالحون فهم الخير ذاته .

ولا يستثنى من هؤلاء الأقوياء إلا من هدى الله . .وقليل ماهم .

ومن ثم كان (الله) فى تمامه وكماله ، وكما هو فعلا ، ضرورة فى حياة الأقوياء ، حتى يكونوا صالحين ، فيستغلوا قوتهم فى نشر الحق والخير والجمال والمثل العليا ، مثلما هو ضرورة فى حياة الضعفاء ، حتى لا يحنوا جباههم لبشر مثلهم ، بحجة أنه قوى ، لأن قوته هذه محدودة محدودة — بجانب قوة الله ، التى لا تنتهى عند حد .

ولكنه الشيطان ، الذى يتسلل إلى النفس ، من خلال نقطة ضعف يلمسها فيها ، فيعمل على توسعتها ، حتى لا يكون فيها مكان لغيره .

وقد تكون هذه النفس الشيطانية نفس غنى أو فقير ... نفس حاكم أو محكوم .. نفس قوى عزيز ، أو مستضعف ذليل .

وعندما يتسلل الشيطان إلى هذه النفس ، فإنه يحرص أول ما يحرص على أن يضع فيها صنماً ، ينشر فيها الظلم والظلام ، بعد أن كانت عامرة بالله سبحانه ، ينشر فيها النور والعرفان .

صمام الأمان ... فى الديانات السماوية :

كانت فكرة (الخلود) هى صمام الأمان ، الذى اتخذته الديانات السماوية فى تثبيت فكرة (الله) فى القلوب ، وكانت فكرة (الخلود) ذاتها هى مدخل الشيطان إلى القلوب ، لتحل فيها وثناً محل الله سبحانه .

والدارس لشخصية (آدم) — أبى البشر — يدرك تمام الإدراك أن الرغبة فى الخلود هى مفتاح تلك الشخصية ، وأن الشيطان فتح بها قلب آدم وحواء ، وجعلهما يقتربان من الشجرة ، التى نهاهما الله عن الاقتراب منها :

— « فوسوس إليه الشيطان ، قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة

الخلد وملك لا يبلى ؟ »(١) .

« فالإنسان الفانى حريص على الخلود أبداً ، فلما لم ينله، كما مناه الشيطان ، ظل وسيظل يحاوله بمختلف الطرق ، بالنسل ، وبالذكر ، وبالخيال . فإن لم ينفعه هذا كله نفعه الدين ، الذى يضمن له البعث مرة أخرى ، ويضمن له نوعاً من الخيال أيضاً »(٢) .

ومن منطلق الخلود هذا ، الذى يعتبر مفتاحاً للنفس البشرية ، منذ خلق الله آدم ، وحتى تقوم الساعة — كان سعى الإنسان وكده ، وكان تفكيره فى أمر غده ، حيث « لا يوجد على سطح الأرض من يفكر فى (الغد) غير الإنسان ، فهو يتميز عن سائر الحيوانات بدوام تفكيره فى المستقبل ، وجهاده المتواصل ، وسعيه الدائب فى سبيل تحسين أحواله . ولا شك أننا نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها ، كالنمل الذى يدخر غذاءه للشتاء القادم ، « ولكن هذا العمل لدى الحيوانات يعتبر (غريزياً) ، فهو صادر عن غير شعور بالمسئولية »(٣) . أما عمل الإنسان فى سبيل غده ، فناتج عن تفكير منظم عميق ، مدفوعاً فيه بالرغبة فى هذا الخلود .

وهى فطرة الله فى الإنسان ، يغذيها الدين وينميها . .ولا يحاربها .

فالإنسان — فى نظر الديانات السماوية — خليفة لله فى الأرض ، وهو — بحكم استخلافه هذا — مسئول عن تعمير الأرض ، وفهم أسرارها ، واستغلال خيراتها ، التى اعتبرها الله سبحانه دليلا من دلائل قدرة الله ، وسبباً من الأسباب الداعية إلى حمده وشكره .

---

(١) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ١٢٠ .

(٢) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن (مرجع سابق) ، ١٦٩ .

(٣) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، مدخل علمى إلى الإيمان — ترجمة ظفر الإسلام خان — مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين — الطبعة الخامسة — المختار الإسلامى — ١٩٧٤ ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يترك هذه الفطرة الإنسانية هكذا ، بلا ضوابط ومعايير . . وإنما وضعها حيث يجب أن توضع فى عقل الإنسان وضميره .

وفرق بين أن يكون هم الإنسان كله هو الخلود فى الدنيا ، بينما هو لن يخلد فى الدنيا أبداً . . وبين أن يكون همه هو ذلك الخلود الحقيقى . . يوم القيامة(١) .

كان هم ديانات السماء أن توجه الإنسان إلى ذلك الخلود الحقيقى ، فى الجنة ، التى وعد الله المتقين من عباده . . وكان هم الشيطان أن يوجه الإنسان إلى الخلود الذى لا يمكن أن يتحقق ... فى هذه الحياة الدنيا .

ومن ثم كان اليوم الآخر ، حيث الحساب ، وحيث الخلود فى الجنة أو النار ، هو صمام الأمان فى يد الديانات السماوية ، وكان التعلق بمتاع الحياة الدنيا وزينتها هو المدخل الذى يتخذه الشيطان للوصول إلى القلوب .

وكان الخلود على الطريقة (الإلهية) يجد مكانه الجدير به فى قلوب من هدى الله ، وكان الخلود على الطريقة (الشيطانية) يسيطر على قلوب من استعبدهم الشيطان واستذلهم .

وكان هذا الخلود وذاك يعكس صداه على كل فريق : قولا وعملا ... دعوة إلى الله ، أو صداً عنه .. سيراً فى طريق الحق أو صداً عنه .

وربما كان موقف سحرة فرعون من موسى ، قبل إيمانهم بالله وبعده ، أصدق دليل على ما ندعيه .

لقد كان السحرة — كغيرهم من المصريين — يؤمنون بفرعون إلهاً لهم ، وكان لهذا الإيمان منطقه الذى رأيناه فى مكانه فى الفصل الثانى(٢) ، فلما كلف موسى بالرسالة ، وأمر بالتوجه — مع هارون أخيه — إلى فرعون ،

---

(١) لنا إلى (يوم القيامة) عود ، فى كتاب تال من كتب هذه السلسلة بإذن الله .

(٢) ارجع إلى ص ٥٣ ، ٥٤ من الكتاب .

وقف السحرة فى صف النظام، وعلى رأسه إلههم فرعون ، ووقفوا يدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة ، وكانت قوتهم تتركز فى قدرتهم على السحر . ولكنهم فوجئوا بأن ما قام به موسى أمامهم لم يكن سحراً ، وإنما كان قوة خارقة ، لابد أن يكون وراءها إله موسى . الإله الحقيقى .

وما أن عرفوا هذه الحقيقة ، واستيقنتها قلوبهم ، حتى وقفوا فى وجه فرعون ، بنفس القوة التى وقفوا بها قبلها فى وجه موسى وهارون أو يزيد . ولم يثنهم عن هذه الوقفة تهديد فرعون ، بكل قوته وسلطانه وجبروته ، لأن قوته لابد وأن تكون دون قوة من أرسل موسى بكل هذه المعجزات :

- « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى . قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت ، مكاناً سوى . قال : موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى . فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . قال لهم موسى : ويلكم ، لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً ، وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا : ياموسى ، إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال : بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا : لا تخف ، إنك أنت الأعلى . وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سجداً ، قالوا : آمنا برب هارون وموسى . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن : أينا أشد عذاباً وأبقى ؟ قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات

والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى»(١).

وهذا الموقف (الصلب) ، الذى وقفه السحرة من فرعون ، بعد أن استيقنوا الحقيقة... وقفه ـ ويقفه ـ المؤمنون فى كل زمان ومكان ، أمام كل فرعون ظهر ـ ويظهر ـ غير فرعون موسى ، وسيظلون يقفونه ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولقد كان اليوم الآخر والإيمان به ، ولا يزال ، هو صمام الأمان ، الذى وقاهم ـ ويقيهم ـ شر الكفر فى هذه الحياة الدنيا ، فجعلهم يقفون فى وجه الكفر مهما بدا قوياً وعنيفاً ، وكان الخلود فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يزال ، هو المدخل الذى دخل منه الشيطان قلب فرعون ، وقلب قارون ، وقلب كل قصير النظر ، رأى — ويرى — أن الحياة الدنيا هى غاية الغايات .

وتمضى الأيام ، قصرت أو طالت ، ويودع الإنسان — كل إنسان ـ هذه الحياة الدنيا . . لينتقل إلى الخلود الحقيقى . . لا ينفعه فيه إلا إيمانه بربه ، وما قدمت يداه — فى حياته الدنيا :

— « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(٢) .

---

(١) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ٥٦ — ٧٣ .
(٢) قرآن كريم : الإسراء — ١٧ : ١٣ — ١٥ .

الفصل الرابع

الله .. عند بنى إسرائيل

تقديم :

وربما كان غريباً أن نفرد لإله بنى إسرائيل فصلا خاصاً ، دون غيرهم من (أهل الكتاب) ، ولكن الغرابة تزول إذا وقفنا على الدافع إلى هذا الإفراد .

لقد تنزلت على بنى إسرائيل سلسلة طويلة من الرسل ، كان ثانيهم هو سيدنا يعقوب ، الذى ينسب إليه هذا الشعب على حد تعبير التوراة (١) ، والذى كان - فى رأى التوراة - أحب إلى قلب أمه من أخيه التوأم عيسو ، والذى حصل وحده - دون أخيه - على بركة أبيه - سيدنا إسحاق(٢). وكان أولهم سيدنا إسحاق ، ابن سيدنا ابراهيم من السيدة سارة ، الذى يسميه بنو إسرائيل (بابن الحرة) ، تمييزاً له عن ابن سيدنا ابراهيم الثانى ، سيدنا اسماعيل ، الذى يسمونه (بابن الجارية)(٣) - وكان آخرهم هو سيدنا عيسى

---

(١) يقول سفر التكوين : « وظهر الله ليعقوب أيضا ، حين جاء من فدان أرام، وباركه . وقال له الله : اسمك يعقوب . لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل يكون اسمك إسرائيل . فدعا اسمه إسرائيل . وقال له الله : أنا الله القدير . أثمر وأكثر . أمة وجماعة أمم تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك . والأرض التى أعطيت لإبراهيم وإسحق لك أعطيها . ولنسلك من بعدك أعطى الأرض » . ارجع إلى :العهد القديم : سفر التكوين-١: الإصحاح الخامس والثلاثون : ٩ — ١٢ .

(٢) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح السابع والعشرون :٣٠—٣٨.

(٣) ومن هنا تبدو النظرة العنصرية ، التى ميزت بنى إسرائيل من قديم ، ولاتزال تميزهم حتى اليوم . ولنا إلى هذه النظرة عودة تفصيلية ، فى الكتاب الذى نخصصه لهم من هذه السلسلة بإذن الله

ابن مريم (١) ، رضى الله على نبينا وعليهم جميعاً .

وليس ذلك هو المهم ، وإنما المهم هو أن إله بنى إسرائيل ، ظل هو هو ، لم يتغير ولم يتبدل ، رغم السلسلة الطويلة من الأنبياء والرسل ، باعتراف كتابهم المقدس ، بعهديه القديم والجديد ، وهو ما جاء القرآن وأيده .

فالله الحقيقى ظلوا بعيدين عنه ، لم تتوصل إليه يوماً قلوبهم الضالة ، ولم توجد أمة من الأمم أتعبت رسلها ، كما حدث مع بنى إسرائيل .

وهم صورة حية من صور (تحوير العقيدة) ، على النحو الذى أرادته نفوسهم المريضة ، كما سنرى .

والأهم من ذلك والأخطر ، أن المتبقى لدينا اليوم من ديانات السماء ، هو دينان من أديان بنى إسرائيل ، وهما اليهودية والمسيحية ، ولكل منهما كتابه ، ولكن أياً منهما ليس هو هو الكتاب الذى تنزل من السماء ، وإنما هو كتاب لعبت فيه أصابع بنى إسرائيل ، ما شاء لها أن تلعب ، فباعدت بينه وبين العقيدة الحقة ، وتركت أتباعه ليكونوا حرباً على العقيدة السماوية ، وهم يرفعون أعلام تلك العقيدة .

ولم يكن غريباً أن تكون الحرب المعلنة على الإسلام والمسلمين فى مختلف أنحاء عالمنا المعاصر من أتباعهما ، قبل أن تكون من أتباع الديانات غير السماوية .

ففى تتبعنا للإله عند بنى إسرائيل - على هذا الأساس - تتبع لفكرة (الله) فى جزء كبير من الأرض ، التى يحتلها عالمنا المعاصر ، وتوضيح للمأساة التى تعيشها تلك الفكرة فى هذا العالم ، وللمأساة التى يعيشها العالم بسببها .

---

(١) أرسل عيسى بن مريم عليه السلام إلى بنى إسرائيل وحدهم ، كما سنرى فيما بعد ، ولم يرسل إلى الناس كافة ، كما كان الحال مع محمد عليه الصلاة والسلام .

بنو اسرائيل :

يرى المرحوم عباس العقاد ، أن بنى إسرائيل ، أو اليهود ، أو العبريين ، إنما هم فى الأصل « قبيلة بدوية صغيرة ، عاشت زمناً فى جنوب بلاد العرب إلى الشرق ، وبقيت فيه على حالة بين الإقامة والترحل إلى مسافات قريبة ، حتى انتقلت - مع ملازمتها الشاطئ - إلى جنوب وادى النهرين » ، وذلك « منذ أربعين قرناً على وجه التقريب »(١) ، وأنهم « فى نشأتهم قوم ضعاف ، قليلون فى العدد ، مضطرون إلى الاكتفاء بالمعيشة التى يتركها سادة الصحراء ، زهداً فيها ، واستغناء عنها »(٢) ، وأنهم « عاشوا بين البادية والحاضرة ، يؤدون الأعمال التى تتطلبها الحاضرة من البادية ، وتتطلبها البادية من الحاضرة ، وهى فى الغالب أعمال وساطة وسمسرة هادئة ، لا تضطرهم إلى الإقدام والغلبة ، فى معاملة أهل المدينة ، ولا فى معاملة أهل الصحراء » (٣) .

وقد أدى بهم ضعفهم هذا إلى انتهازية عرفوا بها من قديم ، كما أدى بهم إلى حب المال ، يسترون به هذا الضعف الذى يحسونه .

وأدت بهم الانتهازية وحب المال ، إلى الاصطدام بكل مجتمع أرادوا العيش فيه ، فكانت موجات الاضطهاد لهم ، فى مصر وبابل ، وفى الامبراطورية الرومانية ، فى العصور القديمة ، وكانت موجات الاضطهاد لهم ، أو الحذر منهم ، فى كل مجتمع معاصر(٤) .

---

(١) عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين - رقم (٣٠٩) من (المكتبة الثقافية) — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٤ ، ص ٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٤) لازالت صورة (اليهودى القبيح) ، التى رسمها الكاتب الانجليزى الساخر برناردشو ، لليهودى ، هى الصورة المعروفة عن اليهودى حتى اليوم فى أوربا وأمريكا ، رغم الشواهد التى تدل على غير ذلك — وقد أدت هذه السياسة باليهود فى ألمانيا إلى معسكرات الاعتقال ، وإلى القتل بالجملة ، على يد هتلر ، فى النصف الأول من هذا القرن

وكان هذا الاصطدام بالآخرين، هو الذى ميزهم بين غيرهم من الشعوب التى نزلوا بينها . . فجعلهم يحسون بأنهم مضطهدون،وبأن اضطهادهم إنما يعود إلى تفوقهم على كافة الشعوب .

فالشعوب ـ فى نظرهم ـ تضطهدهم حسداً لهم، بسبب ما منحوه من مواهب وإمكانيات ، لا لما تحلوا به من صفات نفسية منفرة، يتسم بها طلاب الدنيا المستضعفون ، فى كل زمان ومكان .

ويستطيع الإنسان أن يرى نزعة (التفوق) هذه ، فى كل صفحة من صفحات العهد القديم — كما سنرى .

وهكذا نشأ اليهود منذ أيامهم الأولى ، فى جو عاصف من الخوف والتوجس ، وتوقع اللطمات والضربات القاصمة ، الأمر الذى ترك آثاره الغائرة فى عقولهم ومشاعرهم ، ونظرتهم إلى الناس والحياة ، وأسلوب معيشتهم فى المجتمع الإنسانى ، أسلوب الحقد الدفين ، والثأر من كل إنسان، أياً كان لونه وجنسه ، وذلك عن طبيعة تأصلت فيهم ، وصارت ميراثاً يرثه الأبناء عن الآباء ، ميراث دم ونسب إلى يوم الدين »(١) .

ويرى الدكتور صبرى جرجس ، فى دراسته التحليلية النفسية الرائعة للصهيونية ، وللمنتسبين إليها ، ومنهم عالمهم النفسى سجمندفرويد Sigmond Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) - أن الأمر لم يكن يقتضى عدواناً كعدوان يونية ١٩٦٧، لكى يرى العالم فى اليهودية الصهيونية (شعب غزاة يحب السيطرة)، فإن عبرة التاريخ اليهودى الصهيونى كله، من أيام التوراة ، كانت تشير دائماً إلى أن الشعب المنتسب إليه، شعب غزاة يحب السيطرة. وجاء التلمود باتجاهاته العدائية الصريحة والسافرة ، يؤكد هذا المعنى. فلما ضعفت شوكة اليهود ،وهان

(١) عبد الكريم الخطيب : اليهود فى القرآن — الطبعة الأولى ـ دار الشروق ـ ١٩٧٤ ، ص ١٢ .

شأنهم فى ظاهر الأمر ، ظلت نزعة السيطرة تلازمهم فى الغش والخديعة والدس وإثارة الفتن واستنزاف الأموال ، عن طريق الإقراض بالربا الفاحش ، والتوسل إلى مراكز القوة والنفوذ بالمال والنساء ، ومداهنة أصحاب السلطان ، وما إلى ذلك كله . فلما أتاحت لهم غفلة العرب الخروج بالصهيونية من طور الأيديولوجية إلى مرحلة التنفيذ ، فى القرن التاسع عشر ، وبدأ اليهود يتحدثون عنها جهراً . وعلى استخذاء فى أول الأمر ، ثم استعلاء بعد ذلك ، كانت الوسيلة التى اتبعوها صارخة فى التعبير عن روحها الإرهابية »(١) .

فبنو إسرائيل شعب صنعته ظروفه القاسية، التى عاشها فى أيامه الأولى، شعباً ضعيفاً ، وسط شعوب قوية، فظل يحلم - منذ أيامه الأولى - بأن يتخذ إلى هذه القوة وسائل متعددة، وقد جر عليه هذا الحلم - عبر تاريخه الطويل - نكبات ونكبات ، وسيجلب عليه هــــذا الحلم - فى النهاية - الخراب والدمار :

- « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب : لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما ، بعثنا عليكم عباداً لنا . أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين، وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيراً. عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً »(٢) .

---

(١) دكتور صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى ، أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سجمند فرويد — الطبعة الأولى — عالم الكتب — ١٩٧٠ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) قرآن كريم : الإسراء — ١٧ : ٤ — ٨ .

وقد انعكست هذه الصورة النفسية القذرة المهينة على نفوس بنى إسرائيل، فى فكرتهم عن الإله ، وفى القوانين التى ساروا عليها فيما بينهم ، وفى العلاقات التى سادت بينهم وبين غيرهم ، وفى تصرفاتهم مع الرسل الذين أرسلوا إليهم ، وفيما كتبوا من كتب ، ادعوا أنها من عند الله، ثم انعكست فى النهاية على تاريخهم ، وعلى أيد يولوجيتهم .

اله بنى اسرائيل :

ديانة بنى إسرائيل كانت ـ ولا تزال ـ ديانتهم هم وحدهم ، بمعنى أنها « تشبه الهندوكية والشنتية ، فى أنها ديانة مقفلة ، أى ليست من ديانات الدعوة ، وإنما تختلف بأن الهندوكية والشنتية كلتا هما ديانة شعب مستقر فى وطنه منذ عهد بعيد ، وأن اليهود تعرضوا للشتات غير مرة »(١) .

فديانتهم تعكس نفسيتهم المغلقة المتعصبة المريضة ، وهى ليست « بالدعوة العامة لجميع الناس . . فكان أبناؤها يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها ، كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه ، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم ـ فضلا عن امتشاق الحسام ـ لتعميم الدين اليهودى، وإدخال الأمم الأجنبية فيه »(٢) .

وإله بنى إسرائيل ـ كديانتهم ـ هو إلههم وحدهم ، دون الناس جميعاً ، فهو على ذلك ـ « إله قبيلة واحدة ، يختصها بحظوته »(٣) .

وإله بنى إسرائيل ـ كديانتهم ـ إله يتفق مع نفسيتهم المغلقة المريضة ، من ثم كان أغرب إله عرفته الديانات ، السماوية منها والوضعية .

---

(١) عباس محمود العقاد : ما يقال عن الإسلام ـ دار الهلال ـ ١٩٧٠ ، ص ٣٦.

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد — دار الكتب الحديثة — القاهرة — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م ، ص ٣٢ .

(٣) عباس محمود العقاد : ما يقال عن الإسلام (المرجع الأسبق) ، ص ٤٧ .

واسم هذا الإله الإسرائيلى هو (يهوا) ، وصورة هذا الإله «صورة بعيدة عن الوحدانية، يشترك معه فيها آلهة كثيرون، تعبدها الأمم التى جاورت العبريين فى أوطان نشأتهم وأوطان هجرتهم ، ولكن (يهوا) يغار منها، ولايريد من شعب إسرائيل أن يلتفت إليها ، لأنه يريد أن يستأثر بشعب إسرائيل لنفسه بين سائر الشعوب ، وأن يستأثر شعب إسرائيل به لأنفسهم بين سائر الآلهة»(١) .

وهو إله أحمق، بل لعله أشد الآلهة التى عرفها الإنسان حمقاً ،ومن أجل ذلك سيروه هم ، ولم يسيرهم هو .

إنه سريع الغضب ، سريع الرضا ، يدعو إلى الشىء ونقيضه .

وربما عاد هذا التناقض العجيب، فى هذا الإله العجيب. إلى أن «تصور الإله عند اليهود. تطور مع تطور حياتهم، بالرغم من أنه ظل إلهاً واحداً .. فهو إله حرب كما جاء فى الأسفار الخمسة : التكوين والخروج واللاويون والعدد ثم التثنية ، ثم هو بعد ذلك إله سلم ، ثم إله متعال حاكم للعالم» (٢) .

وتكاد هذه الصورة العجيبة ، لهذا الإله العجيب ، أن تكون واضحة فى كل قصة من قصص التوراة، وكلها قصص : إلا فيما ندر - وفى كل سفر من أسفارها ، لا فى قصة دون قصة ، ولا فى سفر دون سفر .

إنه (تسرع) فخلق الإنسان ، ووضعه فى جنة عدن، فعصاه...واستمر عصيانه له بعد ذلك .

« ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض . وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض.

---

(١) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه (مرجع سابق)،ص ٥٠ .

(٢) محمد عبدالله السمان : مفتريات اليونسكو على الإسلام – الطبعة الأولى – المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع — ١٩٧٦ ، ص ٢٧.

وتأسف قلبه . فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء . لأنى حزنت أنى عملتهم »(١).

وإله بنى إسرائيل إله غيور ، منتقم ، يأخذ الأبناء بذنب الآباء ، وها هو يكلم شعبه (إسرائيل) فى (سفر الخروج)، قائلا : «أنا الرب إلهك ، الذى أخرجك من أرض مصر ، من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمامى . لا تصنع تمثالا منحوتاً ولا ... لأنى أنا الرب إلهك إله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى »(٢) .

ولقد أكد هذه الحقيقة ، التى تؤكد أن إله بنى اسرائيل يأخذ الأبناء بذنب الآباء ، سيدنا موسى ، فى مناقشته التى يوردها (سفر العدد) مع هذا الإله ، حيث يغضب قائلا لموسى : « حتى متى يهيننى هذا الشعب ؟ وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ؟ إنى أضربهم بالوباء ، وأبيدهم ، وأصيرك شعباً أكبر وأعظم منهم »(٣) ، ورغم هـــذا الغضب الشديد . يطلب إليه موسى أن يغفر لهذا الشعب ، رغم علمه بأنه « يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع »(٤) .. فتهدأ ثائرته ويغفر له .

بل إن (سفر التثنية) يصف هذا الرب ، بأنه يأخذ الأبناء بذنب الآباء ، حتى الجيل العاشر (٥) ، لا الثالث والرابع ، كما يقول بذلك (سفر الخروج) و(سفر العدد) .

وربما كان أصدق وصف لإله بنى إسرائيل هذا ، أنه إله حرب ، فهو (جنرال) يقود جيشاً ، ولا يهمه إلا أن ينتصر هذا الجيش .

---

(١) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح السادس : ٥ — ٧ .
(٢) العهد القديم : سفر الخروج — ٢ : الإصحاح العشرون : ١ — ٥ .
(٣) العهد القديم : سفر العدد — ٤ : الإصحاح الرابع عشر : ١١ — ١٣ .
(٤) العهد القديم : سفر العدد — ٤ : الإصحاح الرابع عشر : ١٨ .
(٥) العهد القديم : سفر التثنية — ٥ : الإصحاح الثالث والعشرون : ٢ ، ٣ .

وما دام هذا شأنه ، فهو عصبى المزاج ، سريع الغضب ، سريع الفرح ، غيور على سمعة جيشه .

وها هو يوجه (يوميته) إلى جيشه فى (سفر الخروج) : « ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والعززيين والحويين واليبوسيين. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التى أنت آت إليها، لئلا يصيروا فخاً وسطك . بل تهدمون مذابحهم ، وتكسرون أنصابهم ، وتقطعون سواريهم . فإنك لا تسجد لإله آخر . لأن الرب اسمه غيور . إله غيور هو »(١) .

وعندما يخطئ هذا الجيش ، فيجازيه على خطئه ، ويأتى قائد من قواد الجيش إليه ، ليوضح له أن هذا الجيش على وشك الاندحار مالم يعف عنه ، يندم ندماً ويغضب غضباً ، لا يستطيع وصفه إلا العبارات التى يوردها (سفر صموئيل الثانى)، على لسان داود وربه . يقول داود: «الرب صخرتى وحصنى ومنقذى . إله صخرتى به أحتمى . ترسى وقرن خلاصى . ملجأى ومناصى. مخلصى من الظلم تخلصنى . أدعو الرب الحميد، فأتخلص من أعدائى . لأن أمواج الموت اكتنفتنى . سيول الهلاك أفزعتنى . حبال الهاوية أحاطت بى. شرك الموت أصابتنى . فى ضيقى دعوت الرب ، وإلى إلهى صرخت ، فسمعت من هيكله صوتى ، وصراخى دخل أذنيه . فارتجت الأرض وارتعشت . أسس السموات ارتعدت وارتجت ، لأنه غضب . صعد دخان من أنفه ، ونار من فمه أكلت . جمراً اشتعلت منه »(٢) .

ونفس الصورة، أو قريب منها نراها مع موسى، الذى رأى غضب ربه، لأن قومه اتخذوا عجلا مسبوكا ، وسجدوا له وذبحوا، فذهب إليه ، يستعطفه

---

(١) العهد القديم : سفر الخروج — ٢ : الإصحاح الرابع والثلاثون : ١١ — ١٤ .
(٢) العهد القديم : سفر صموئيل الثانى — ١٠ : الإصحاح الثانى والعشرون: ٢-٩ .

على شعبه ، فيقول له ربه : «رأيت هذا الشعب ، وإذا هو شعب صلب الرقبة . فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم ، فأصيرك شعباً عظيماً . فتفزع موسى أمام الرب إلهه . وقال : لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك ، الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ، ويد شديدة ؟ .. ارجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك . . فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه »(١) .

وتكاد حياة إله بنى اسرائيل مع شعبه ، فى كل أسفار التوراة ، أن تكون غضباً يذهب بعقله وحلمه ، ثم ندماً على هذا الغضب بعد قربان يقدم ، أو شفاعة تشفع .

وها هو يقول لهم فى (سفر يوئيل) : « ارجعوا إلى بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء والنوح . ومزقوا قلوبكم ، لاثيابكم ، وارجعوا إلى الرب إلهكم ، لأنه رءوف رحيم ، بطىء الغضب ، وكثير الرأفة ، ويندم على الشر . لعله يرجع ويندم ، فيبقى وراءه بركة تقدمة ، وسكيباً للرب إلهكم »(٢) .

ومن ثم كان ما يحتله (حائط المبكى) من منزلة عند اليهود ، لاتقل عن تلك المنزلة التى يحتلها (المذبح) .

إن أقرب الطرق إلى قلب هـــذا الإله العجيب هو بطنه ، ومن أجل ذلك كانت عنايته به وبطقوسه وتقاليده ، وبالأصناف التى تذبح عليه ، لا تفوقها عناية .

ولقد أدرك نوح ـ فى نظر التوراة ـ نقطة ضعف هذا الإله ، فاستغلها حتى أرضاه . لقد « بنى نوح مذبحاً للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ، ومن

---

(١) العهد القديم : سفر الخروج — ٢ : الإصحاح الثانى والثلاثون : ٩ — ١٤ .
(٢) العهد القديم : سفر يوئيل — ٢٩ : الإصحاح الثانى : ١٢ — ١٤ .

كل الطيور الطاهرة ، وأصعد محرقات على المذبح . فتنسم الرب رائحة الرضا . وقال الرب فى قلبه : لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان »(١) .

وها هو هذا الإله العجيب يقول لشعبه ، من خلال نبيه موسى : « لا تصنعوا معى آلهة فضة ، ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب . مذبحاً من تراب تصنع لى ، وتذبح عليه محرقاتك ، وذبائح سلامتك غنمك وبقرك . فى كل الأماكن التى فيها أصنع لاسمى ذكراً آتى إليك وأباركك . وإن صنعت لى مذبحاً من حجارة ، فلا تبنه منها منحوتة . إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها . ولا تصعد بدرج إلى مذبحى كيلا تنكشف عورتك عليه »(٢) .

ثم هو يقول لموسى : إنه يجب أن يقدم لهذا المذبح ثوراً وكبشين ، « وخبز فطير وأقراص فطير ملتوتة بزيت ، ورقاق فطير مدهونة بزيت . . وتأخذ الكبش الواحد . . فتذبح الكبش ، وتأخذ دمه وترشه على المذبح من كل ناحية . وتقطع الكبش إلى قطعه . تغسل جوفه وأكارعه ، وتجعلها على قطعه وعلى رأسه . وتوقد كل الكبش على المذبح . هو محرقة للرب . رائحة سرور . وقود هو للرب »(٣)

وبالمحرقات والذبائح ، استطاع داود أن يولى ابنه سليمان الملك من بعده ، فقد بلغ عدد تلك الذبائح « ألف ثور ، وألف كبش ، وألف خروف ، مع سكائبها ، وذبائح كثيرة ، لكل إسرائيل »(٤) .

وإذا كان إله بنى إسرائيل قد عظم « سليمان جداً فى أعين جميع إسرائيل ، وجعل عليه جلالا ملكياً ، لم يكن على ملك قبله فى إسرائيل » بسبب هذه

(١) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح الثامن : ٢٠ ، ٢١ .
(٢) العهد القديم : سفر الخروج — ٢ : الإصحاح العشرون : ٢٣ — ٢٦ .
(٣) العهد القديم : سفر الخروج — ٢ : الإصحاح التاسع والعشرون : ٢ — ١٨ .
(٤) العهد القديم : سفر أخبار الأيام الأول — ١٣ : ٢١ .

الذبائح ، فقد طلب هذه الذبائح بنفسه ، من أليفار التيمانى وصاحبيه — أصحاب أيوب(١).

أرأيت إلى نهم إله إسرائيل ؟

إنه جنرال حرب ، كل وظيفته أن يضمن ولاء جيشه بالبكاء والقربات.. فإن هو رضى فتح لهم الأرض ، وأذل لهم الأعداء ، ليقدموا له — بعد الفتح - الذبائح والمحرقات . إنه يعدهم بفتح مصر يوماً ، و « فى ذلك اليوم ، يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر » ٢).

وكيف لا يقدمون له ما يريد ، وهو المحارب عنهم(٣) ، الذى يرسل هيبته أمامهم ، ويزعج جميع الشعوب التى تأتى عليهم ، ويعطيهم أعداءهم مدبرين(٤)، والذى سيجمعهم فى النهاية،ويعطيهم كل الأرض،على حد قوله، مخاطباً يعقوب أباهم :

— « والآن، هكذا يقول الرب خالقك يا يعقوب،وجابلك يا إسرائيل: لا تخف لأنى فديتك . دعوتك باسمك . أنت لى . إذا اجتزت فى المياه فأنا معك ، وفى الأنهار فلا تغمرك . إذا مشيت فى النار فلا تلدغ ، واللهيب لا يحرقك . لأنى أنا الرب إلهك ، قدوس إسرائيل ، مخلصك . جعلت مصر فديتك كوش وسبا عوضك . إذ صرت عزيزاً فى عينى ، مكرماً ، وأنا قد أحببتك أعطى أناساً عوضك ، وشعوباً عوض نفسك . لا تخف ، فإنى معك . من المشرق آتى بنسلك ، ومن المغرب أجمعك . أقول للشمال : أعط ، وللجنوب : لا تمنع . ايت ببنى من بعيد . وبناتى من أقصى الأرض . بكل

(١) العهد القديم : سفر أيوب — ١٨ : الإصحاح الثانى والأربعون : ٧ — ١٠.
(٢) العهد القديم : سفر أشعياء — ٢٣ : الإصحاح التاسع عشر : ١٩ .
(٣) العهد القديم : سفر يشوع — ٦ : الإصحاح الثالث والعشرون : ١٠ .
(٤) العهد القديم : سفر الخروج — ٢ : الإصحاح الثالث والعشرون : ٢٧ .

من دعى باسمى ، ولمجدى خلقته وجبلته وصنعته . أخرج الشعب الأعمى وله عيون ، والأصم وله آذان »(١) .

اله بنى اسرائيل الجديد :

وعندما يكون إله قوم على شاكلة هذا الإله الإسرائيلى ، فإن شعبه لابد أن يفسد ، فالناس على دين إلههم . ومن ثم لم يزد تواتر الأنبياء على بنى إسرائيل جيلا بعد جيل — لم يزدهم هدى ، بقدر مازادهم ضلالا وفسقاً .

لقد « أورثهم تاريخهم الخاص ، وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة ، والاضطهاد الفظيع ، والكبرياء القومية ، والإدلال بالنسب ، والجشع وشهـــوة المال وتعاطى الربا ، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة ، لم توجد فى أمة ، وانفردوا بخصائص خلقية ، كانت لهم شعاراً على تعاقب الأعصار والأجيال ، منها الخنوع عند الضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة ، والختل والنفاق فى عامة الأحوال ، والقسوة والأثرة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله »(٢) .

وكان إلههم كما تصوروه — من الأسباب الرئيسية لإفسادهم على هذا النحو .

لقد جعل الدنيا منتهى آمالهم ، يعيشون فيها فساداً كما يشاءون، ثم يملئون له بطنه حتى يشبع ، ويرضى عنهم ، أو يكون له إن أجرموا فى حقه ، فيندم على خطئه فى حقهم .

وإذا كانت (الدنيا) هى التى أفسدت بنى إسرائيل ، فليكن الإله الجديد من محتقرى الدنيا والمنفرين منها .

---

(١) العهد القديم : سفر أشعياء — ٢٣ : الإصحاح الثالث والأربعون : ١ — ٨ .

(٢) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — الطبعة العاشرة — مطابع على بن على — الدوحة — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، ص ٤٥ .

وعلى هذه الصورة الجديدة ، جاء المسيح ، عيسى بن بن مريم ، إله بنى إسرائيل الجديد .

وقد « ظهر المسيح عليه السلام ، فى عهد الامبراطور الرومانى أوغسطس سنة ١٤ م ، عقب فراغ طويل المدى ، من الجدب الدينى لبنى إسرائيل »(١)، « فى وقت تحجرت فيه الديانة اليهودية ، واستحالت طقوساً جامدة ، لا حياة فيها ، ومظاهرها خاوية ، لا روح فيها » ، غير « قادرة على أن تنصرف إلى التهذيب الروحى ، والتطهير الوجدانى » ، « ورد الروح والحياة إلى الضمير الإسرائيلى »(٢) :

وصارت الحاجة ماسة إلى دعوة لا تقوم « على الحروف والنصوص » ، « بل » « لتحرير الضمائر من ربقة الحروف والنصوص »(٣) .

ومن ثم لم تكن المسيحية « نظاماً فلسفياً ، يقوم على قوانين المنطق ، وإنما هى دين نشأ فى بلاد الشرق ، يضع للناس جملة قواعد ، يسترشدون بها فى أعمالهم ، ويبشر المؤمنين بحياة روحية مباركة ، ويتوعد العصاة بغضب الله ونار جهنم »(٤) .

وبعبارة أخرى : جاءت المسيحية لترد الناس إلى حياة الروح ، بعد أن ساقتهم النصوص والقوانين بعيداً عن هذه الحياة الروحية .

---

(١) ابراهيم خليل أحمد : محمد ، فى التوراة والإنجيل والقرآن — الطبعة الثالثة — مكتبة الوعى العربى ، ص ٨٠ .

(٢) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام — الطبعة الثالثة — مطبعة دار الكتاب العربى — ١٩٥٢ ، ص ٦ ، ٧ .

(٣) عباس محمود العقاد : مايقال عن الإسلام (مرجع سابق) ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٤) صالح عبد العزيز : تطور النظرية التربوية (دراسات فى التربية) — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٩٦٤ ص ١٨٦ .

ولم يكن غريباً ـ لذلك ـ أن يقول السيد المسيح لتلاميذه، فيما يرويه عنه متى : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض، بل لأكمل . فإنى الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد ، أو نقطة واحدة من الناموس ، حتى يكون الكل »(١) .

ومعنى ذلك أن المسيحية قد أتت متممة لليهودية ، ولم تأت هادمة لها .

ومعناه ـ أيضاً ـ أنها أتت رد فعل لها .

كان فى اليهودية القوانين والشرائع والنظم ، وكان ينقصها (الروح)، فجمدت القوانين والشرائع والنظم . . وماتت .

ومن ثم كان إحياء اليهودية ، يتمثل فى عودة (الروح) إليها .

وهذا ما سعى له عيسى بن مريم .

ومن ثم وجه تلاميذه الاثنى عشر ، لهداية الناس قائلا لهم: « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »(٢) .

ولم يقل عيسى بن مريم إنه إله أو ابن إله ، وإنما قال لهم : إنه عبد الله ورسوله ، وهاهو ، عندما استقبلوه فى جبل سيناء ، ثم فى أورشليم ، قائلين له « (مرحباً بك يا إلهنا) ، وأخذوا يسجدون له كما يسجدون لله »، تنفس « الصعداء وقال : (انصرفوا عنى أيها المجانين ، لأنى أخشى أن تفتح الأرض فاها وتبتلعنى وإياكم لكلامكم الممقوت! »(٣) . ثم « قال : (إنكم لقد ضللتم ضلالا عظيماً أيها الإسرائيليون ، لأنكم دعوتمونى إلهكم وأنا إنسان . وإنى أخشى لهذا أن ينزل الله بالمدينة المقدسة وباء شديداً ، مسلماً إياها لاستعباد

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الإصحاح الخامس : ١٧ ، ١٨ .
(٢) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الإصحاح العاشر : ٥ ، ٦ .
(٣) انجيل برنابا : الفصل الثانى والتسعون : ١٨ ، ١٩ .

الغرباء . لعن الشيطان الذى أغراكم بهذا الهـ لعنة !) . ولما قال يسوع هذا ، صفع وجهه بكلتا يديه »(١) .

ثم عاد فقال : « (إنى أشهد أمام السماء، وأشهد كل ساكن على الأرض، أنى برىء من كل ما قال الناس عنى . من أنى أعظم من بشر. لأنى بشر مولود من امرأة، وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر، عرضة للشقاء العام »(٢) .

والمسيح يسمى نفسه مرة (ابن الله) ، ومرة (ابن الإنسان) .

وهو عندما يسمى نفسه (ابن الإنسان) إنما يقول الحقيقة ، وعندما يسمى نفسه (ابن الله) ، إنما يقولها مجازاً .

وهو لا يقصر التسمية (ابن الله) عليه وحده ، وإنما يجعلها لكل مؤمن بالله ، فهو يقول لهم فى إحدى مواعظه : « طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون »(٣) ، كما يقول لهم فى موعظة أخرى : « (احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم. وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات »(٤) . كما ينصحهم أن يصلوا قائلين: « أبانا الذى فى السموات . ليتقدس اسمك . . . »(٥) .

وأكثر من ذلك ، أنه يجعل الناس جميعاً آلهة ، فإنه عندما أراد اليهود رجمه بالحجارة ، « أجابهم يسوع : أعمالا كثيرة حسنة أريتكم من عند أبى . بسبب أى عمل ترجموننى ؟ أجابه اليهود قائلين : لسنا نرجمك لأجل عمل

---

(١) انجيل برنابا : الفصل الثالث والتسعون : ٢ — ٥ .
(٢) انجيل برنابا : الفصل الرابع والتسعون : ١ ، ٢ .
(٣) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح الخامس : ٩ .
(٤) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح السادس : ١ .
(٥) « « : « « — ١ : الإصحاح السادس : ٩ .

حسن ، بل لأجل تجديف. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً. أجابهم يسوع : أليس مكتوباً فى ناموسكم : أنا قلت إنكم آلهة ؟ »(١).

وهو بقوله هذا ، إنما يؤكد ما جاء فى التوراة عن خلق الإنسان :

« وقال الله : نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه . . . »(٢).

ولكن تسمية المسيح (بابن الله) كما سمى غيره ، تحولت ـ مع الزمن ـ من المجاز ، إلى الحقيقة.

وصار عيسى بن مريم ، عبد الله ورسوله ، إلهاً كاملا.

وكان إله بنى إسرائيل القديم (جنرالا) قاسياً ، لا يعرف الرحمة ، يهمه أن يرى شعبه يتقرب إليه بالذبائح وبالدموع. . فصار إلههم الجديد شيئاً آخر جديداً ، يتفق وروحانية الدعوى المسيحية ، فهو إله قدم « نفسه ذبيحة ، لأجل الإنسان »(٣) ، ليفتديه من خطاياه.

فهو إله يفتدى شعبه ، وليس إلها يتخم على حساب شعبه

وهو إله يغفر لشعبه بدون مقابل ، وليس إلهاً يجعل لكل خطيئة مقابلا.

وهو إله يقودهم إلى ملكوت السموات والأرض ، وليس إلها يقودهم إلى السيطرة على الأرض وإذلال الشعوب.

---

(١) العهد الجديد : إنجيل يوحنا — ٤ : الإصحاح العاشر : ٣١ — ٣٤ .
(٢) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح الأول : ٢٦ — ٢٨ .
(٣) كتاب البراهين العقلية والعلمية ، فى صحة الديانة المسيحية ـ تأليف وجمع القائمقام ترتن ، من فرقة المهندسين — ترجمة حبيب أفندى سعيد — الطبعة الثانية — مطبعة النيل المسيحية بالمناخ بمصر — ١٩٢٥ ، ص ٢٣٠ .

وهو إله واحد لاشريك له ، « فالمسيح كان دائماً يؤكد على مبـــدأ الوحدانية ، وأنه ليس يوجد غير إله واحد » (١) ، هو « الرب ، الذى لبس صورة العبد »(٢) ، وهو « الخالق والموجد والمبدع والبارئ والفاطر وأصل الوجود » ، و « الأول الذى لا أول له ، والبدء الذى لا بداية له ، وواجب الوجود .. والحى الأول، الذى منه نبعت الحياة » ، و « (الحافظ) للحياة ، وليس الخالق لها فقط ، والضامن لوجودها ، والحامى لها، والنافخ فيها ، لتبقى شعلتها مضيئة دائماً ، وأوارها حامياً »(٣) .

و « أعجوبة العجائب » فى هذا الإله ، « هى أنه وهو الإله الأزلى ، يولد كطفل ، خالق الكل يولد من عذراء ، القادر على كل شىء يتعلق بصدر امرأة ، الذى يمسك الكون بيمينه تحمله ذراعا أم ، الذى يعطى الجميع حياة وقوتاً ، وفراخ النسر طعاماً ، يرضع لبن الثديين ، ملك الملوك، ورب الأرباب ، يحسب ابن يوسف »(٤) .

« فهو من نسل داود حسب الجسد ، وأما بأقنومه الإلهى ، فهو أصل داود وخالقه »(٥) .

وهكذا تحول المجاز (ابن الله) فى الفكر الإسرائيلى الجديد ، إلى حقيقة ، وتحولت الحقيقة (ابن الإنسان) إلى مجاز .

---

(١) الأنبا غريغوريوس : أنت المسيح ، ابن الله الحى — رقم (١٩) من (سلسلة المباحث اللاهوتية والعقائدية) — مطبعة دار العالم العربى — فبراير ١٩٧٥ ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦

(٣) المرجع السابق ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٤) القمص ابراهيم جبرة : المولود من العذراء — رقم (٢) من (المكتبة اللاهوتية) — مكتبة المحبة بالقاهرة — ١٩٧٥ ، ص ٧١ .

(٥) القمص ابراهيم جبرة : المولود من الآب — رقم (١) من (المكتبة اللاهوتية) — مكتبة المحبة بالقاهرة — ١٩٧٥ ، ص ٣٠ .

وصارت صفة (ابن الإنسان) .التى وصف بها المسيح نفسه فى أناجيل متعددة (١) هى المجاز ، واختلطت الصفتان (ابن الله ، وابن الإنسان) ، « بحيث أصبح المدلول لأى منها فى مكان، نجده للأخرى فى مكان آخر »(٢) .

وقد يقول قائل : ولم تجسيد الإله ، وكتب بنى إسرائيل كلها ، بعهديها القديم والجديد ، تكاد تتفق ، إلا فيما ندر ، على أن الله سبحانه لا يمكن أن يرى ، وأن الأرض ومن فيها ليست بقادرة على تحمل طلعته ؟

والجواب سهل فى نظرهم ، فإن « التجسد الإلهى ليس ديناً جديداً ، بل هو تطوير لفكرة البشرية عن الإله ، الذى يبحثون عنه ليعبـــدوه ، وتعريف بالإله المنظور ، ليتقربوا إليه ويحبونه »(٣) .

ومن ثم « نرى فى تجسد ربنا يسوع المسيح ، وولادته من العذراء ، ميلاداً لبشريتنا الساقطة ، وتجديداً لطبيعتنا الآثمة، ونهوضاً بأسلوب الحياة، ليرقى إنسان الله فى مدارج الكمال الروحى ، ويخلع الإنسان العتيق ، ويلبس الجديد المخلوق على صورة الله »(٤) .

هذا بالإضافة إلى أن « سر التجسد ، لا يتعارض مع صفات الله ، ولا يتنافى مع صلاحه ، ولا يشين ألوهيته ،وإذا كانت أولى صفات الله المحبة، ومحبته دفعته ليخلص الإنسان من خطاياه ، ويغمر الناس بمحبته وعطفه ،

---

(١) ارجع — على سبيل المثال — لا الحصر — إلى :
— العهد الجديد : انجيل متى — ١ الإصحاح الثالث عشر : ٣٧ ، ٤١ .
الإصحاح التاسع عشر : ٢٨ .
انجيل يوحنا — ٤ : الإصحاح الخامس : ٢٧ .

(٢) عبد الكريم الخطيب الله والإنسان (قضية الألوهية بين الفلسفة والدين) — الطبعة الثانية - دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ٢٥٩ .

(٣) القمص ابراهيم جبرة : المولود من العذراء (مرجع سابق) ، ص ٣ ، ٤ — من المقدمة .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥ — من المقدمة .

فكان لزاماً أن يصير مثلهم ، حتى لايكون بعيداً عنهم ، أو متعالياً عليهم ، بل ليجمعهم حوله ، وإلا لاستحال على أغلبية البشر الاقتراب إليه ، والدنو منه ، والتمتع بمعاشرته ، والتعرف إلى قداسته ومحبته ، وتذوق بركات خلاصه »(١) .

أثر التصور الجديد :

وهو ليس تصوراً جديداً للإله بالنسبة للفكر الإنسانى ، وإنما هو تصور جديد بالنسبة لبنى إسرائيل وحدهم ، وهو تصور قريب من التصور المصرى القديم ، كما رأيناه فى الفصل الثانى (٢) .

وهو تصور بعيد عن التصور السماوى للفكرة الإلهية ، لأن التصور السماوى لهذه الفكرة واحد ، لم يتغير بتغير الزمان والمكان . ويتلخص هذا التصور السماوى فى وحدة الله ، لاتعدده ، وفى قوته واقتداره ، وفى عدله ورحمته ، وفى استحالة تشبيهه وتجسيده ، وفى أنه رب الناس كل الناس ، ورب السموات والأرض وما بينهما .

وثمة من يرى أن دعوة السيد المسيح ، لما لم تجد لها صدى فى بنى إسرائيل ، « اضطر تلاميذه وحواريوه ، من أجل إحياء دعوته ، إلى نقلها من أرض اليهود ، إلى الشعوب الوثنية المحيطة بها ، كالرومان واليونانيين وغيرهم ، ورغبة من هؤلاء المبشرين فى نشر الدعوة المسيحية بين تلك الشعوب الوثنية ، وخوفاً من أن تجد بين هذه الشعوب نفس المصير الذى وجدته بين اليهود ، اضطر المبشرون المسيحيون إلى تطعيم المسيحية ببعض الطقوس والعادات والشعائر ، التى وجدوها فى تلك الشعوب الوثنية ، وأغلب الظن أن هؤلاء المبشرين ، كانوا حسنى النية ، فقد رأوا أن هذه هى الطريقة

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢) ارجع إلى ص ٥١ — ٥٤ من الكتاب .

الوحيدة لتقريب الديانة المسيحية إلى أذهان الوثنيين »(١) .

« وهكذا بمرور الوقت ، وتعاقب الأجيال ، أخذت الأحكام الإلهية تتغـــير ، لتحل محلها أحكام أرضية ، وأخذت الحقائق تتباعد ، لتفسح الطريق للأوهام ، وأخذت المسيحية بذلك تتباعد شيئاً فشيئاً عن الدين السماوى العظيم ، الذى أتى به السيد المسيح عليه السلام من لدن الرحمن »(٢).

وهكذا تأثرت الفكرة الإلهية المسيحية فى مصر ، بالثالوث المقدس عند قدماء المصريين (٣) ، كما تأثرت بالثالوث الهندى (٤) .

كما تأثرت المسيحية فى مسألة الصلب ، بالديانات الهندية واليونانية (٥) ، وبالديانات الوثنية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم وقتئذ (٦) .

ولقد أدى هـــذا التصور إلى نتائج عديدة ، فى داخل العالم المسيحى وخارجه .

لقد أدى إلى سد أية قناة يمكن أن توجد بين المسيحية ، وبين بنى إسرائيل ، الذين أرسلت إليهم ، لا إلى غيرهم ، لاختلاف صورة الإله وتصوره من ناحية ، ولاتهام اليهود بصلب السيد المسيح (٧) — فقد كانت المسيحية رد فعل عنيفاً لليهودية ، ولم تكن علاجاً رقيقاً لأوجاعها .

---

(١) محمد مجدى مرجان : الله واحد أم ثالوث — دار النهضة العربية ، ص ٨٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ . وارجع كذلك إلى :
— كتاب البراهين العقلية والعلمية فى صحة الديانة المسيحية (مرجع سابق)، ص ٤٥٧.
— ابراهيم خليل أحمد (مرجع سابق) ، ص ١٢ — من تقديم المؤلف .

(٤) محمد مجدى مرجان (المرجع الأسبق) ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(٥) كتاب البراهين العقليـة والعلمية فى صحة الديانة المسيحية (مرجع سابق) ، ص ٤٦١ — من الهامش .

(٦) إبراهم خليل أحمد (مرجع سابق) ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٧) لأسباب سياسية ، برأت الكنيسة الكاثوليكية اليهود من دم السيد المسيح ، بينما ظلت أكثر من ثمانية عشر قرنا تلطخهم بهذا الدم .

كذلك أدى هذا التصور إلى انقسام خطير بين حواريى المسيح ، حتى لقد كفر بعضهم بعضاً ، ونستثنى من هؤلاء الحواريين بطبيعة الحال يهوذا الاسخريوطى ، الذى باع معلمه لليهود بثمن بخس ، وقدمه بذلك للصليب فى رواية الأناجيل ، أو شبه لليهود فظنوه المسيح ، بينما كان الله قد رفع المسيح إلى السماء، فى رواية انجيل برنابا ، التى أيدها القرآن الكريم .

فها هو بطرس يختلف مع بولس ، ويتهمه بالنفاق والمداهنة ، أمام برنابا وتيطس فى أنطاكية، بعد أربع عشرة سنة فقط من رفع المسيح إلى السماء(١) .

كذلك خالف برنابا بولس ، وذلك لأن « القديس برنابا ، الذى شاهد ورافق المسيح الإنسان ، رفض القول بتأليهه ، ورفض دعوة الثالوث والأقانيم ، فانفصل عن صديقه بولس » ، « الذى لم ير السيد المسيح فى حياته على الإطلاق »(٢) .

وقد وصف برنابا هذا، الذى انقلبت عليه الكنيسة لرفضه تأليه المسيح، وصف فى (أعمال الرسل) بأنه « ابن الوعظ » ، وأنه « كان له حقل باعه ، وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل »(٣) ، ووصف بأنه « كان رجلا صالحاً وممتلئاً من الروح القدس والإيمان »(٤) ، كما قال له المسيح : « تهلل، لأن اسمك مكتوب فى سفر الحياة »(٥) .

أما بطرس، الذى اتبعته الكنيسة ، فالمسيح نفسه يصفه بأنه (شيطان) ،

---

(١) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية — ٩ : الإصحاح الثانى : ١ — ١٤ .

(٢) محمد مجدى مرجان (مرجع سابق) ، ص ٥٠ .

(٣) العهد الجديد : أعمال الرسل — ٥ : الإصحاح الرابع : ٣٧ .

(٤) العهد الجديد : أعمال الرسل — ٥ : الإصحاح الحادى عشر : ٢٤ .

(٥) انجيل برنابا : الفصل التاسع عشر : ٦ .

وذلك بقوله له : « اذهب عنى يا شيطان . أنت معثرة لى ؛ لأنك لا تهتم بما لله ، لكن بما للناس »(١) .

ومع ذلك فقد حورب برنابا ومن نحا نحوه فى قضية ألوهية السيد المسيح ، وكرم بولس وبطرس ومن نحا نحوهما فى نفس القضية .

ثم أدى هـــذا التصور إلى انقسام الكنيسة المسيحية منذ البداية ، بين كنيسة شرقية أرثوذكسية ، وكنيسة غربية كاثوليكية ، ثم انقسمت الكنيسة الكاثوليكية بعد ذلك إلى كنيسة كاثوليكية وكنيسة بروتستانتية ، ثم انقسمت الكنيسة البروتستانتية . . وهكذا ، وكل فريق يكذب الفريق الآخر ، وكل كنيسة تتهم الأخرى بالكفر والضلال والهرطقة .

ولا زالت المشكله ماثلة بصورة صارخة فى انجلترا (البروتستانتية) ، وأيرلندا (الكاثوليكية) التابعة لها ، حيث نجد (القتل على الهوية) ، فالبروتستانتى يقتل الكاثوليكى ، لمجرد أنه كاثوليكى ، والكاثوليكى يقتل البروتستانتى ، لمجرد أنه بروتستانتى .

وهى امتداد للمشكلة الرئيسية — مشكلة العقيدة المسيحية ، وثورة مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ — ١٥٤٠) على الكنيسة الكاثوليكية بسببها ، سنة ١٥١٥ .

جاءت المسيحية لهداية (خراف بيت إسرائيل الضالة) كما سبق ، ولكنها لم تنتشر بين اليهود ، وفرت إلى الخارج ، بجهود الرسل المخلصين ، من أمثال برنابا وبولس وغيرهما .

وقد زاد انتشارها بعد سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، سنة

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الإصحاح السادس عشر : ٢٣ .

٤٧٦، حيث جاء سقوطها «مصحوباً بقيام عدد من الممالك الجرمانية الجديدة، التى أقامتها بعض شعوب البرابرة»(١)، وكانت هذه الشعوب الغالبة تنشر الذعر فى نفوس الأهلين، حتى ضاقوا بالحياة وضاقت بهم، وكانت (حياة الروح) التى دعت إليها المسيحية، هى الملجأ والملاذ.

ومما يلفت النظر أن الجرمان الغالبين قد شجعوا انتشار المسيحية، وأن «مودة توثقت عراها بين الكنيسة والمتبربرين»(٢)، فالكنيسة تخدم المتبربرين بزرع روح الاستكانة والرضا فى نفوس الأهلين، والمتبربرون يخدمون الكنيسة بما يضيقونه على الأهلين، فيدفعونهم دفعاً إلى المسيحية.

وتطورت العلاقه بين الدولة والكنيسة، بحيث صارت كل منهما درعاً للأخرى، وصار «الاختلاف فى العقيدة يعد خيانة، والخروج على الدولة يعد كفراً»(٣).

وتحت ظل هذا التحالف، أعدم من أعدم، واضطهد من اضطهد، سواء من رجال الدين المسيحى، مثل آريوس، وأوريجانوس، وترتليان، والأسقف نسطور، وسرفتيوس، وسوسينس(٤)، ومن العلماء الذين قالوا بحقائق علمية، لم ترض عنها الكنيسة ورجالها، وربما كان أشهر هؤلاء العلماء جاليليو (٥)،

---

(١) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: المدنية الإسلامية، وأثرها فى الحضارة الأوربية — الطبعة الأولى — دار النهضة العربية — ١٩٦٣، ص ٣٧.

(٢) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٨، ص ٨٣.

(3) BENIANS, SYLVIA: From Renaissance to Revolution, A Study of the Influence of Political Development of Europe; Methuen & Co, Ltd., London, 1923, p. 95.

(٤) محمد مجدى مرجان (مرجع سابق)، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٥) دكتور عبد الحميد أحمد أمين: الطاقة الذرية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها — رقم (٦) من (الألف كتاب) — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٦، ص ٣٢، ٣٣ —

وكوبرنيكس[١] ، رغم ما كان لاكتشافاتهما ، التى من أجلها حوربا ، من أثر فى تطور الحضارة العالمية .

ولكن هذا التحالف ذاته ، هو الذى أدى إلى (اندماج) الكنيسة فى الفساد الذى ساد أوربا فى ذلك الوقت ، مما أدى إلى (تمرد) « على السلطة وعلى القانون وعلى الكنيسة »[٢] ، وإلى تمرد على العقيدة المسيحية ذاتها ، تمثل فى « ظهور موجة من الإلحاد والهرطقة ، ووضوح الحاجة إلى التوفيق بين الأفكار والمعتقدات الدينية الرئيسية ، والاهتمامات الدنيوية المختلفة ، أو بعبارة أخرى ، ضرورة التوفيق بين مطالب الإيمان ، ومطالب العقل الإنسانى »[٣] .

وهذا ما تصدى له القديس توماس الأكوينى St. Thomas Aquinas (١٢٢٥ — ١٢٧٤م) ، ومن نحا نحوه من المدرسيين .

ولكن محاولات توماس الأكوينى كانت مجرد البداية .

ووصلت هذه المحاولات ذروتها على يد مارتن لوثر ، وزونجلى Zwingli (١٤٨٤ — ١٥٣١) وكالفن Calvin (١٥٠٩ — ١٥٦٤) ، وغيرهم ، ممن طوروا فى (صلب) العقيدة المسيحية ذاتها .

ومن هنا بدأ (الشرخ) فى العالم المسيحى ، وهو شرخ لا زالت آثاره قائمة إلى اليوم فى هذا العالم المسيحى .

---

(1) SAGAN, CARL, and LEONARD, JONATHAN NORTON, and the Editors of LIFE : Planets, LIFE-Science Library, Time Life International (Nederland) N. V., 1967, p. 13.

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ٢٢٠ .

(٣) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى — دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٩٦ .

ويقال : « إن حركة الإصلاح الديني ، التي قام بها (مارتن لوثر) ، تأثرت بمبادئ الإسلام ، في مثل إبطال الكهنوتية ، وتحريم صكوك الغفران »(١) ، فقد « كانت ـ على علاتها ـ أبرز مظهر للتأثر بالإسلام أو ببعض عقائده ، كما اعترف المؤرخون »(٢) .

كذلك أدى هذا التصور إلى نشأة الأيديولوجيا الرأسمالية، لتسد الفراغ العقائدي في العالم المسيحي ... وفي أحضان الأيديولوجيا الرأسمالية، نشأت الأيديولوجيا الشيوعية(٣) ... وبالتالي ، فقد أدى هذا التصور إلى ما يعيش فيه الغرب اليوم من مادية ، رأسمالية أو شيوعية .

وبدلا من أن تعيش المسيحية رسالة سلام وحب ورحمة، صارت اليوم تتواطأ مع أعداء الله ، من يهود وشيوعيين . . للإجهاز على الإسلام .
ولنا إلى هذه الموضوع عودة في نهاية هذا الكتاب ـ بعد الفصل الخامس.

---

(١) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) : القرآن وقضايا الإنسان — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٧٢ ، ص ١٠٥ .
(٢) أبو الحسن الندوي (مرجع سابق) ، ص ١٣٩ .
(٣) دكتور عبد الغني عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٢٩ — ٤٣ .

الفصل الخامس

الله . . . فى الإسلام

تقديم :

وكان لابد أن يتنزل الإسلام . . خاتماً لرسالات السما ، مصححاً ما سبقه من عقائد ، بعد أن امتدت إليها يد الشيطان .

وكان لابد أن يتنزل بعيداً بعيداً عن أيدى بنى إسرائيل ، قتلة الأنبياء ، كما وصفهم الكتاب المقدس ، فى عهديه القديم والجديد ، فى أكثر من مكان .

وكان لابد أن يتنزل قريباً قريباً من بيت الله الحرام ، الذى أقامه أبو الأنبياء ابراهيم . . وسط قوم وثنيين حقاً ، إلا أنهم لا ينقصهم من إنسانية الإنسان شىء ، سوى من يهديهم إلى سواء السبيل . . . فيسلكون وراءه ومن بعده سواء السبيل .

وتنزل بالإسلام الوحى الأمين على قلب محمد ، بعد أن تولاه ربه سبحانه صقلا وتهذيباً ، فى « المدرسة الإلهية ـ قبل أن يكلف بالرسالة » ، « فى سن الأربعين ، حيث كان قد استصفيت روحه صلى الله عليه وسلم ، وصار أهلا لما ينتظره من مسئولية كبرى ، وتبعة عظمى »(١) .

تنزل الوحى على قلب الأمين محمد ، فى وقت صار فيه « العالم بناء أصيب بزلزال شديد ، هزه هزاً عنيفاً ، فإذا كل شىء فيه فى غير محله ، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به ،

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : التعليم مدى الحياة فى الإسلام — ورقة تقدمت بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إلى : المؤتمر الدولى للتنمية وتعليم الكبار ، المنعقد فى دار السلام — تنزانيا ، فى ٢١ — ٢٦ يونيو ١٩٧٦ ، ص ١٠ .

وشغل مكاناً آخر ، ومنه ما تكدس وتكوم » ، وصار الإنسان « إنساناً معكوساً ، قد فسدت عقليته ، فلم تعد تسيغ البديهيات ، وتعقل الجليات ، وفسد نظام فكره ، فإذا النظرى عنده بديهى وبالعكس ، يستريب فى موضع الجزم ، ويؤمن فى موضع الشك. وفسد ذوقه، فصار يستحلى المر، ويستطيب الخبيث ، ويستمرئ الوخيم » ، وصار المجتمع « مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شىء فيه فى غير شكله ، أو فى غير محله ، قد أصبح الذئب فيه راعياً ، والخصم الجائر قاضياً ، وأصبح المجرم فيه سعيداً حظياً ، والصالح محروماً شقياً »(١) .

تنزل فى مكان لم يكن به تأثير لليهودية أو المسيحية ، فقد كانتا منزويتين هناك بعيداً عن حركة الحياة العربية الكبرى ، لا تؤثر إحداهما فيها . . بقدر ما تتأثر بها .

تنزل بعد أكثر من ستة قرون من ميلاد السيد المسيح ، كانت قد « تشعبت فى خلالها المذاهب المسيحية، بين قائل بطبيعة واحدة للسيد المسيح، و قائل بطبيعتين اثنتين : هما الإنسانية والإلهية ، وبين مؤله للسيدة مريم ، ومنكر لهذا التأليه » (٢) .

ومع هذا الخلط فى المسيحية ، كان هناك التصور اليهودى للإله . . وكانت هناك المجوسية ، وكان هناك غيرها وغيرها .

« فلما ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية ؛ كان عليه أن يصحح أفكاراً كثيرة ، لا فكرة واحدة ، عن الذات الإلهية ، وكان عليه أن يجرد الفكرة

---

(١) أبو الحسن الندوى (مرجع سابق) ، ص ٨٩ .
(٢) عباس محمود العقاد : الله (مرجع سابق) ، ص ١٣٢ .

الإلهية،من أخلاط شتى، من بقايا العبادات الأولى ،وزيادات المتنازعين على تأويل الديانات الكتابية » (١) .

وكان على الإسلام أن يرد الناس جميعاً إلى (الفطرة) فى مسألة الذات الإلهية ، وأن يردهم إلى ديانات السماء التى سبقته .

الله فى الاسلام :

ولا يختلف الله فى الإسلام عنه فى الديانات السابقة ، قبل أن تمتد إليها أيدى التحريف ، وكان على الإسلام أن يرد الناس إلى هذا الإله ، بصورة « لا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير ، بل له (المثل الأعلى) ، وليس كمثله شىء »(٢) .

وكان صوت النبى الأمين ، وهو يدعو إلى الله ،متميزاً تميز صورة الإله الذى يدعو إليه ، وتميز الدعوة التى يدعو إليها . وكان « يدعو إلى رب العالمين ، رب العربى والأعجمى ، ورب الأبيض والأسود ، ورب كل عشيرة وقبيلة ، لا يستأثر بقوم، ولا يؤثر قوماً على قوم ، إلا من عمل صالحاً واتقى حدود الله .

صوت نبى ينادى كل من بعث إليه أنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الأرض ، ولا يدفع السوء عن نفسه ، فضلا عن قومه،ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحداً لا ينتفع بعقله ، ولا يتفكر فيما يسمع من نبى أو رسول!

صوت نبى يقول للناس ، أنه إنسان كسائر الناس ، وهو بشير يهدى إلى الحق والرشد ، نذير يحذر من الباطل والضلال ... » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .
(٣) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه (مرجع سابق) ، ص ٧٧ .

وجاء هذا الصوت فى وقته ، فقد كانت الإنسانية قد بلغت رشدها، ولم تعد تحتاج إلى الخوارق والمعجزات .. ومن ثم كان الدين الذى يخاطب فى الإنسان عقله، هو الدين المناسب ليكون خاتماً الرسالات ، وكان الله الذى يخاطب فى الإنسان هذا العقل، هو هو الإله .

كان فيما سبق يتبين للبشرية الطفلة، مؤيداً أو ناصراً ، ومدمراً ومحطماً من خلال سيل جارف، أو جيش من الجراد ، أو شق للبحر ، أو تمكين من شفاء المرضى وإحياء الموتى .. كان يبدو لهم رأى العين ، من خلال ماتراه العين، وتسمعه الأذن، ويشمه الأنف .. فكانت المعجزة تختفى فيختفى أثرها، وتكون ردة إلى الوثنية .. وآن له أن يظهر لهم إشعاعاً ينير عقولهم ، ومن خلال العقول يبدد ظلمات النفس .. فيبقى أثره خالداً .. حتى يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها.

ولم يكن غريباً أن نجد الإنجيل ـ ومعناه البشارة ـ يبشر بمحمد ، خاتماً للأنبياء والمرسلين، إما صراحة ، فى انجيل برنابا فى أماكن متعددة، منها ذلك الموضع الذى يقول السيد المسيح فيه : «ماأسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم. صدقنى إنى رأيته ، وقدمت له الاحترام ، كما رآه كل نبى . لأن الله يعطيهم روحه نبوة . ولما رأيته امتلأت عزاء ، قائلا: (يامحمد ، ليكن الله معك ، وليجعلنى أهلا أن أحل سير حذائك. لأنى إذا نلت هذا صرت نبياً عظيماً ، وقدوس الله) » (١) .

وإما أن يبشر به تلبيحاً ، كما فى أماكن مختلفة من الأناجيل، ومنها ـ على سبيل المثال ، لا الحصر ـ قول متى فى إنجيله : « قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناؤون، هو قد صار رأس الزاوية..

---

(١) انجيل برنابا — الفصل الرابع والأربعون : ٢٧ — ٣١ .

من قبل الرب كان هذا ، وهو عجيب فى أعيننا . لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره . ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه » (١) .

إلا أن هذه البشارة التلميحية كانت تفسر حسب الهوى بطبيعة الحال .

ويستطيع الإنسان أن يرى الله بعقله ، وأن يحسه بقلبه ، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يراه بعينيه ، أو يسمعه بأذنيه .. وإن كان يراه بعقله ، ويحسه بقلبه ... من خلالهما ، إن اراد .

ذلك أن (طبيعة الله) لا تمكن الإنسان ، بإمكانياته البشرية المحدودة ، من أن يراه ، كما أن الأرض ذاتها لا تتحمل طلعته .

والقرآن الكريم يحل لنا هذه القضية أروع حل فى قصة موسى ، حينما أراد أن يرى الله (٢) ، واستعد لذلك بإعداد روحى استغرق أربعين يوماً ... ولندع القرآن الكريم يتم لنا القصة :

— « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون : اخلفنى فى قومى ، وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين » (٣) .

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الإصحاح الحادى والعشرون : ٤٢ — ٤٤ .

(٢) كان بنو إسرائيل من أكثر شعوب الأرض رغبة فى رؤية الله .. فهى رغبة إسرائيلية كائنة فى أعماق موسى ، أكثر مما هى رغبة موسوية ، بدليل اقتناع سيدنا موسى بسرعة ، كما ترينا القصة .

(٣) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١٤٢ ، ١٤٣ .

ولم يخر موسى صعقاً « لرؤية الذات ، وإنما لرؤية تجليها على شىء آخر ، هو الجبل .. مجرد تجليها ...ولك أن تتصور ماذا كان يمكن أن يحدث له ، لو رأى الذات »(١) .

وإنما يستطيع الإنسان أن يرى الله من خلال أفعاله .. فهى بصمات تدل عليه . . ولقد رآه الرسل السابقون كلهم من خلال المعجزات التى حققها لهم .. أو حققها على أيديهم .. وها هو خليل الله ابراهيم ، يريد أن يطمئن قلبه إلى الإيمان الذى آمنه ، فماذا كان :

— « وإذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى؟قال : أولو تؤمن؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم »(٢) .

وشبيه بقصة إبراهيم هذه ، قصة أخرى يوردها القرآن الكريم قبلها مباشرة :

— « أوكالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس،وانظر إلى العظام : كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ؟ فلما تبين قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير»(٣).

ومعجزة موسى فى عصاه ، وعيسى فى إبراء المرضى وإحياء الموتى ،

---

(١) مصطفى محمود : رأيت الله — دار المعارف بمصر — ١٩٧٦ ، ص ٣٦ .
(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٦٠ .
(٣) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٥٩ .

وغيرها وغيرها . . كلها معجزات ظهرت فيها قدرة الله . . ولم يظهر فيها الله ذاته .

وقد جاء الإسلام فى عصر كانت الإنسانية فيه قد بلغت رشدها، وارتقى عقلها وفكرها ، وصار المناسب هو لفت النظر إلى آيات الله .. فى النفس .. وفى الحياة .. وفى الكون الواسع المحيط بنا .

ومن أجل ذلك ، يتخذ القرآن الكريم من آيات الله هذه ، وسيلة يصل بها الإنسان إلى الله . . إن أراد الوصول إليه .

فهو يلفت نظر الإنسان إلى نفسه، وما ركبه الله فيها من آيات معجزات :

— «وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون»(١)..

— « قل : هو الذى أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون »(٢) .

وقد يشير — بالإضافة إلى هذه الآيات المعجزات — إلى خلقه الأول :

— « الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون »(٣) .

— « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ، لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »(٤) .

---

(١) قرآن كريم : المؤمنون — ٢٣ : ٧٨ .
(٢) قرآن كريم : الملك — ٦٧ : ٢٣ .
(٣) قرآن كريم : السجدة — ٣٢ : ٧ — ٩ .
(٤) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٧٨ .

— « فلينظر الإنسان : مم خلق ؟ خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب »(١) .

كذلك يلفت الله نظر الإنسان إلى الكون المحيط به :

— « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها »(٢) .

— « ألم نجعل الأرض مهاداً ؟ والجبال أوتاداً ؟ وخلقناكم أزواجاً ؟ وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حباً ونباتاً . وجنات ألفافاً »(٣) .

وقد يلفت نظره إلى ذلك كله . . فى كلمات قصيرات . . معجزات :

— « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون؟»(٤).

الله ... والانسان المسلم :

عندما يلفت الله سبحانه وتعالى نظر الإنسان إلى خلق الله ، فى السماء ، وفى الأرض ، وفى النفس ، إنما يلفت نظره إليها لأمرين :

أولهما أن يرى الله رأى العين، من خلال بديع صنعه ، فيؤمن به ، إيماناً يسيطر على نفسه ، فلا يرى فى الحياة طريقاً غير الذى يأمره به .

وثانيهما أن يتوصل إلى ذلك النظام الإلهى العجيب، والإحكام الإلهى الرائع،

---

(١) قرآن كريم : الطارق — ٨٦ : ٥ — ٧ .
(٢) قرآن كريم: الشمس — ٩١ : ١ — ٨ .
(٣) قرآن كريم : النبأ — ٧٨ : ٦ — ١٦ .
(٤) قرآن كريم : الذاريات — ٥١ : ٢٠ ، ٢١ .

وإلى (القانون) الذى يحكم هذا الكون . . لا يختل ، إلا يوم تقوم الساعة — بإذنه ، كأمارة من أماراتها :

— « إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت »(١) .

— «إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت ؟ وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت »(٢) .

وتوصل الإنسان إلى هذا (القانون) الأزلى الخالد، الذى يحكم الكون ، توصل إلى الله فى النهاية ، لأن هذا القانون لم يصنع نفسه بنفسه ، كما يقول بذلك الماديون ، فكل قانون لا بد له من مصمم ، ولا بد له من منفذ .

وبقدر كمال المصمم والمنفذ ، يكون كمال القانون ، والعكس .

والقوانين الوضعية ، سواء فى ذلك القوانين العلمية، والقوانين الاقتصادية والاجتماعية ، دائمة التغير والتبدل ، بتغير وتبدل ظروف الزمان والمكان .

ولكن قانون السماء ، كما يبدو لنا فى الكون، دائم ثابت ، وكذلك نظام الكون كما حدده هذا القانون ، دائم ثابت .. منذ ملايين السنين .

وهذه (الاستمرارية) الطويلة فى حد ذاتها معجزة المعجزات ، وأكبر دالة على عظمة الله سبحانه .. إذ عجيب — حقاً — أن تطول هذه الاستمرارية على هذا النحو . . لا تختل ولا تضطرب .

---

(١) قرآن كريم : الانفطار — ٨٢ : ١ — ٥ .

(٢) قرآن كريم : التكوير — ٨١ : ١ — ١٤ .

ويوم تختل وتضطرب ، فسيكون اختلالها واضطرابها بإرادة إلهية عظمى . . وذلك يوم تقوم الساعة كما سبق .

وفى استمرارية القانون والنظام . . لابد أن نرى الله .

وفى استمرارية الحياة وتجددها على نحو مثالى . . لابد أن نرى الله .

وفى كل شىء حولنا فى الحياة . . لابد أن نرى الله .

نراه قريباً منا قرباً لا يتصوره خيالنا الضحل المحدود :

— « ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »(١) .

فهو كائن فى أعمق أعماق كل مخلوق من مخلوقاته ، وهذا المخلوق لا يزيد على أن يكون صورة حية له . . . لقدرته واقتداره ، ولبديع صنعه ، ولكمال إرادته .

وهو — بالإضافة إلى ذلك — موجود فى كل مكان حولنا . . فى أعماق البحار ، وعلى سطح الأرض ، وعلى قمم الجبال ، وفى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفى السماء من فوقنا ، وفى الشمس ، وفى القمر ، فحيثما سرت تجده ، وحيثما توجهت تراه . . ترى قدرته ، وترى بديع صنعه ، وترى إرادته . . وقانونه :

— « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم . وقالوا : اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون . بديع السموات والأرض ، وإذا قضى أمراً ، فإنما يقول له : كن ، فيكون »(٢) .

---

(١) قرآن كريم : ق — ٥٠ : ١٦ .

(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١١٥ — ١١٧ .

وهو — قبل ذلك وبعده — على قمة هذا النظام الكونى الكبير ، الذى لا تعد الأرض التى نعيش عليها ، إلا ذرة واحدة من ذراته .. التى لا تعد ولا تحصى(١).

وهو — مع ذلك — يتغلغل فى كل ذرة من ذرات هذا الكون، تغلغله فى النفس البشرية ، على النحو الذى رأيناه ، وتغلغله فى كل خلق خلقه، على هذه الأرض ، وفى أعمق أعماقها ، وفى السماء ، على نحو ما سبق أيضاً .

والإنسان — فى الإسلام — جزء من هذا الكون الفسيح ، ومخلوق من مخلوقات الله فيه .. ولكنه يتميز على غيره من المخلوقات فى أنه (خليفة) لله فى الأرض ، ومعنى استخلافه، أنه يجب أن يسير على درب من استخلفه، فيكون الله مثله الأعلى فى حياته ، يفهم الكون المحيط به، ويستغله لصالحه ، ويحقق فيه — ما استطاع — رسالة الحق والخير والجمال — رسالة الله فى

(١) تعتبر الأرض التى نعيش عليها ، مجرد كوكب، من أصغر الكواكب فى المجموعة الشمسية ، وتعتبر المجموعة الشمسية كلها جزءاً ضئيلا من المجرة ، كما تعتبر المجرة التى تنتمى إليها المجموعة الشمسية مجرة واحدة من ملايين المجرات الموجودة في هذا الكون . وتتكون المجموعة الشمسية ، التى تنتمى إليها الأرض، من حوالى ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم على الأقل ، فماذا عن بقيه مجموعات المجرة ؟ وماذا عن المجرات الأخرى ؟

ولنا عود إلى الحديث عن الكون، بشكل تفصيلى، فى الكتاب القادم بإذن الله من هذه السلسلة ، الذى نخصصه لهذا الغرض .

ومن أراد تفصيلا فى هذا الموضوع ، فليرجع على سبيل المثال — لا الحصر — إلى :

— برتا موريس باركر: ما وراء المجموعة الشمسية — ترجمة ادوار رياض — رقم (١٤) من (مجموعة الكتب العلمية المبسطة) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٩، ص٩، ١٠، ٢٩ .

— برتا موريس باركر : أقرب الجيران إلى الأرض — ترجمة ادوار رياض — رقم (١٥) من (مجموعة الكتب العلمية المبسطة) — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٩٧٠ ، ص ٣ .

— دكتور سعيد على غنيمة : أساسيات فى الجيولوجيا : الكونية — المعادن والصخور — الطبيعية — الطبعة الأولى — الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية — ١٩٧٥ ، ص ١٤ ، ٣٠ ، ٣١ .

هذا الكون ، ويقف فى طريق الشر ، الذى يسعى إبليس إلى نشره، ويجمع من حوله الأتباع والأنصار :

— « وله من فى السموات والأرض ، كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم »(١) .

— « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم »(٢) .

فالإنسان — فى الإسلام — باختصار — مطالب بأن يدرس الكون المحيط به ، فيقف على بديع صنع الله فيه . . فيزداد إيمانه بالله ربه ، ويزداد إحساسه بالمسئولية نحو عالمه الذى يعيش فيه ، فيجعل من نفسه قوة نورانية كبرى ، تبدد الظلمات التى نشرها — وينشرها — الشيطان وأتباعه ، لإفساد الحياة والأحياء .

فليست دراسة الكون هدفاً فى حد ذاتها، وإنما هى وسيلة لهدف أكبر ، وهو أن تتحقق عبودية الإنسان لله . . وأن يقوم بمهام الاستخلاف التى ألقاها عليه ربه ، يوم خلقه .

الأثر الايديولوجى للفكرة الالهية الاسلامية :

يصعب فهم ما أحدثه الإسلام من تغير فى النفسية العربية ، ثم من تغير فى شبه الجزيرة العربية ، وفى العالم أجمع ، بعد سنوات قليلة من ظهوره، دون استيعاب ذلك التغير الذى أحدثه — على النحو الذى رأيناه — فى الفكرة الإلهية .

---

(١) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٦٠ .
(٢) قرآن كريم: الروم — ٣٠ : ٢٦ ، ٢٧ .

فمن «المسلم به أن العرب، عندما اندفعوا من شبه جزيرتهم، فى القرن السابع للميلاد ، ليضعوا أساس دولتهم العظيمة، لم يكن لديهم عندئذ تراث حضارى شامخ ، ينافسون به الشعوب الأخرى ، ذات الحضارات القديمة .

ومع ذلك ، فقد كان لدى العرب عندئذ ما هو أهم ، وهو القدرة على التعلم السريع ، والإفادة من الغير، وتشرب الاتجاهات النافعة فى الحضارات التى قدر لهم أن يلتقوا بها، ويصادفوها ، فى طريق توسعهم »(١) .

« ولا شك أن هذه (القابلية الحضارية) ، قد أخذوها من الإسلام ، بهذا التغيير الأيديولوجى العميق ، الذى أدخله على قلوبهم ، فتحولوا من (جاهليين) ، إلى حماة للحضارة ، ومتشربين لها ، ثم مساهمين فيها بعد ذلك »(٢) .

وبعبارة أخرى : كان أعراب الجزيرة العربية بدائيين، قبليين ، أنانيين.. فلما استقرت فى أعماقهم تلك الفكرة الإلهية ، صاروا طلاب حضارة ، ثم حماة لها .. كما صاروا يحسون بعلاقة جديدة تربطهم بالناس.. كل الناس، وبالعالم أجمع .. فوقفوا مع الحق أينما كان ، ونشروا العدل أينما حلوا ، وصارت لديهم قدرة على التمييز بين الحق والباطل ، وقدرة — بعد ذلك — على مناصرة الحق ، ومقاومة الباطل .

كانوا — بالأنانية — يعيشون لأنفسهم ، ثم صاروا — بالعقيدة — يعيشون للعقيدة .

---

(١) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق) ، ص ١٥ .
(٢) دكتور عبد الغنى عبود : « التربية ومحو الأمية الأيديولوجية » — تعليم الجماهير — مجلة متخصصة ، تصدر عن : الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار — السنة الثالثة — العدد السادس — مايو ١٩٧٦ ، ص ٣١ .

وكانوا — بالكفر — يفرضون باطلهم على من يصادفونه ، ثم صاروا — بالعقيدة — يتقبلون كل اتجاه بناء يرونه عند الآخرين .

لقد أصلحت الفكرة الإلهية الإسلامية علاقة أعراب البادية بالله ، فأصلحت علاقتهم — بالتالى — بالكون المحيط بهم ، بكل ما فيه ومن فيه ، ومن هنا كان التغير الجذرى الذى أحدثته هذه الفكرة ، لا فى تاريخ الجزيرة العربية وحده ، بل فى تاريخ العالم كله — ولا زالت تحدثه .

لقد أدى تغير الفكرة الإلهية فى الإسلام ، إلى نهضة حضارية كبرى ، هددت — فيما هددت — النظام اللاهوتى الإقطاعى الموجود فى الغرب ... ومن هنا كانت سلسلة الحروب الصليبية ، التى بدأت فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ولم تنته حتى اليوم ، وكل الدلائل تشير إلى أنها لن تنتهى حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، بعد أن علق الشرك الجديد على صدره صليب المسيح ، وبعد أن أسلمت الإسرائيليات ديانات السماء الكتابية ، إلى مادية ، ليست منها ، ولا هى منه .

وكانت هذه النهضة الحضارية الكبرى ، هى التى دفعت الغرب إلى التمرد على سلطان الكنيسة ، ثم إلى تعلم علوم المسلمين ، وإقامة حضارة الغرب الحديثة على أساسها .

وتحول المسلمون — أصحاب الحضارة — بعد أن شوشت عوامل عديدة الفكرة الإلهية فى عقولهم وقلوبهم — إلى متخلفين .. يسكنون العالم الثالث ، وتحول الغربيون — بعد أن تخلوا عن عقيدتهم المسيحية ، وأخذوا بحضارة الإسلام — إلى متقدمين .

وهو تحول فرضه القانون الإلهى ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وليس تحولا تفرضه المادية التاريخية ، كما يقول بذلك الماديون :

— « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه ، يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال »(١) .

وقد طبق هذا القانون الإلهى المحكم على المسلمين ، فى حياة القائم بالدعوة عليه الصلاة والسلام ، فى غزوة أحد .. وفى غزوة حنين ، وكان المسلمون قبل أحد قلة مستضعفة ، ولكن وضوح الفكرة الإلهية ، حول ضعفها إلى قوة :

— « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات ، لعلكم تشكرون »(٢) .

وقد بدا تأييد الله لعباده المسلمين واضحاً فى غزوة بدر :

— « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم ، أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله

---

(١) قرآن كريم : الرعد — ١٣ : ٨ — ١١ .
(٢) قرآن كريم : الأنفال — ٨ : ٢٦ .

ورسوله فإن الله شديد العقاب »(١) .

وأتت أحد بعد بدر .. وكان تواكل ، كاد يؤدى إلى هزيمة ساحقة .. لولا رسول الله ، يجمع القلوب حوله من جديد .

وفى حنين .. صار المسلمون كثرة، وقالوا : (لن نهزم اليوم من قلة).. مما يدل على عدم وضوح الفكرة الإلهية الوضوح الكافى ، خاصة وأن جيش المسلمين كان يضم عدداً كبيراً من (الطلقاء) ، الذين دخلوا الإسلام بعد فتح مكة .. ولولا ثبات رسول الله، لتحول مسار التاريخ الإنسانى كله :

— « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة،ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » (٢) .

وقد وعى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، خريج المدرسة المحمدية العبقرى ، ذلك القانون الإلهى المحكم ، تمام الوعى ، فكان ينصح الجيش —وهو يودعه إلى الحرب — محذراً من المعاصى، لأن المعاصى — فى نظره — أخطر على جيش المسلمين من عدوهم ، لأنهم إن اشتركوا مع عدوهم فى المعاصى، كانت لعدوهم الغلبة عليهم ، لأن عددهم ليس كعدد الكفار ، ولا عتادهم كعتادهم .

ولم يقف تأثير الفكرة الإلهية فى الإسلام ، عند حد التأثير المادى فى العالم الخارجى ، على نحو ما سبق ، بل تجاوزه إلى التأثير فى العقيدة الدينية — فى

(١) قرآن كريم : [illegible] — ٩ : ١٣ .
(٢) قرآن كريم : التوبة — ٩ . ٢٥ ..

اليهودية والمسيحية على السواء ، رغم ما بين العقيدتين والعقيدة الإسلامية من تنافر — أدى — ولازال — إلى حروب دموية ، وحقد أسود .

فقد دفعت العقيدة الإسلامية ، لما أدت إليه من تغيير سبق الحديث عنه ، دفعت « باليهود إلى إحياء السنة التي هجروها من عباداتهم الأولى ، وعلمتهم سنناً أخرى لم يعلموها ، ومنها شعائر في صميم العبادة، كشعائر الوضوء والغسل ، ونظام الصلاة الجامعة ، وغيرها من الصلوات » (١).

كذلك دفعت هذه العقيدة، في العالم المسيحي، إلى الدعوة إلى إنكار الاعتراف أمام القسيس ، والدعوة إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية، وإلى شرح البعض لعقيدة التثليث المسيحية، شرحاً يقترب بها من فكرة التوحيد الإسلامية، ويبعد بها عن تأليه السيد المسيح (٢) .

ولقد كان الأثر الواضح لها في العالم المسيحي ، هو الحركة البروتستانتية ، التي تهدم القواعد الأساسية التي تقوم عليها العقيدة المسيحية، والكنيسة الكاثوليكية ، كما سبق في نهاية الفصل السابق (٣) .

ويعود هذا الأثر الأيديولوجي، الذي أحدثته العقيدة الإسلامية، إلى أن الدعوة الإسلامية، خاطبت خير ما في الإنسان، فلباها أمثال الصديق والفاروق، وأقبل عليها المخلصون من كل طراز ، فهي ليست بالدعوة التي تخاطب الضعف والضعة ، ولا بالدعوة التي تخاطب الطمع والأثرة ، ولا بالدعوة التي قوامها الترهيب والترغيب ، ولكنها الدعوة التي يجيبها أكرم سامعيها ، ويتخلف عنها أقلهم سعياً إلى الخير ، واقتداراً عليه » (٤) .

---

(١) عباس محمود العقاد : مايقال عن الإسلام (مرجع سابق) ، ص ٩٧ .

(٢) أبو الحسن الندوي (مرجع سابق) ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٣) ارجع الى ص ١٠١ ، ١٠٢ من الكتاب .

(٤) عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م ، ص ٨٢ .

كما يعود هذا الأثر الأيديولوجى، إلى أن الدين الإسلامى، وعاء هذه العقيدة، إنما هو « منهج إلهى للحياة البشرية ، يتم تحقيقه فى حياة البشر ، بجهد البشر أنفسهم ، فى حدود طاقتهم البشرية ، وفى حدود الواقع المادى للحياة الإنسانية فى كل بيئة » ، وهو « لا يغفل لحظة ، وفى أية خطة ، وفى أية خطوة ، عن فطرة الإنسان ، وحدود طاقته ، وواقع حياته المادى أيضاً » (١) — ويعود إلى أن الإسلام إنما يعتمد فى إصلاحه كله على (فردية) الفرد ، فيربط الإنسان — فرداً — بالله ، « وهذه الصلة الفردية الشخصية بالله ، هى التى تمنح الإنسان وجوده المستقل ، فلا ينبهم ولا يضيع فى القطيع » (٢) ، ولكنها تغرس — بعد ذلك — « الروح الجماعية فى قلب الإنسان » (٣) .

فهى ليست فرديه مطلقة ، وإنما هى فردية محوطة بإطار جماعى .

فإذا ارتبط الإنسان بالله على هذا النحو، وإذا « تنبه الوعى الباطن على مثل تنبه الحواس الظاهرة إلى ما حولها ، انقشع الغيم ، وتبددت الجهالة ، وصار سلوك الحق هو الضرورة » (٤) .

فالإسلام — فى إصلاحه — يغرس معنى العبودية لله فى قلب الإنسان ، فيخلق — بغرسه — الضمير ، كقوة « معنوية » تصده عن العمل القبيح ، وتحرضه على التصرف الحميد ، وهذه القوة هى التى يعبر عنها فى الإسلام بالخوف من الله ، أو خشية الرب بالغيب ، أو محاسبة النفس ، أو مراقبة الخالق (٥) .

فالأثر الأيديولوجى العميق ، الذى أحدثه الإسلام فى داخل الجزيرة

---

(١) سيد قطب : هذا الدين — دار الشروق ، ص ٤ .
(٢) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية — الطبعة الثانية — دار الشروق ، ص ٢٠٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .
(٤) البهى الخولى : الاشتراكية فى المجتمع الإسلامى ، بين النظرية والتطبيق — مكتبة وهبة ، ص ١٠٠ .
(٥) الدكتور أحمد الشرباصى : الدين والمجتمع — المطبعة العربية — ١٩٧٠ ، ص ٩ .

العربية وفى خارجها، إنما أحدثه من خلال هذا التغيير العميق، الذى أحدثه فى النفس الإنسانية . . من خلال ربطها بالله ، خالقها ، وخالق الكون والحياة ، ومدبر الأمر كله .

صفات الله فى الاسلام :

ولا يمكن فهم صفات الله سبحانه — كما وصف بها نفسه فى القرآن الكريم — دون ربطها بما سبق فى هذا الفصل ، من حيث طبيعته،وعلاقته بالإنسان،وعلاقته بالكون والحياة . . . وإمكانية الوصول إليه،والاتصال به . . والأثر الأيديولوجى الذى أحدثه التصور الإسلامى ، فى عصور الإسلام الأولى ، سواء فى شبه الجزيرة العربية ، وفىالعالم الإسلامى ، وفى العالم أجمع .

فهو سبحانه ، كما وصف نفسه فى مواضع متفرقة من كتابه الكريم: الله، الرحمن الرحيم، الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور ، الغفار القهار الوهاب الرزاق، الفتاح العليم، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، الحليم العظيم ، الغفور الشكور ، العلى الكبير ، الحفيظ المقيت ، الحسيب الجليل ، الكريم ، الرقيب المجيب ، الواسع الحكيم ، الودود المجيد ، الباعث الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى المتين، الولى الحميد، المحصى ، المبدئ المعيد ، المحي المميت ، الحى القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد الصمد ، القادر المقتدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الوالى المتعالى ، البر التواب ، المنتقم العفو ، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام ، المقسط، الجامع، الغنى المغنى ، المانع ، الضار النافع، النور الهادى ، البديع ، الباقى الوارث ، الرشيد الصبور .

وهى صفات تصفه فى كل حالاته ، وتحدد موقفه أمام مخلوقاته مجتمعة،

وأمام كل مخلوق منها على حدة . كما تحدد موقفه من الكون ، والحياة والأحياء ، وموقفه من المؤمنين به ، ومن العصاة له . وتحدد موقفه من بدء الخلق ، وموقفه من نهايته .

وهى صفات فيها التعميم وفيها التخصيص ، وفيها التنوع والمرونة،بحيث تناسب كل حال،وتستجيب لكل متغير .

فهو ليس عفواً غفوراً عن طول الخط ، ولكنه منتقم جبار أيضاً .

وهو عفو غفور للتائبين إليه، والمستغفرين له، وهو منتقم جبار بالنسبة للمكابرين المعاندين ، الذين لا يتعظون، ولا يريدون أن يتعظوا .

وبنفس المنطق نراه سبحانه الأول ، ونراه الآخر أيضاً ، كما نراه المحيى، ونراه المميت ، ونراه القابض ، ونراه الباسط . . وهكذا .

المغزى الخلقى للفكرة الالهية فى الاسلام :

لا تعيش الفكرة الإلهية فى الإسلام، بمعزل عن الإنسان المسلم، فالإنسان — فى الإسلام — خليفة لله فى الأرض .

والخليفة لابد أن يعيش على النمط الذى رسمه له من استخلفه سبحانه ، لا كما يشاء أن يعيش .

فالخلافة أعباء ومسئوليات ، وليس مجرد تشريف وتكريم .

وهى تفرض على من يكلف بها من التضحيات، أضعاف ما توفره له من أسباب الافتخار .

وقد رأينا — فيما سبق — أن الإسلام ينظر إلى الناس فرادى ، فكل إنسان فيه مسئول عن نفسه،وعلى ماقدمت يداه فى دنياه يحاسب يوم القيامة، دون ما شفاعة من شفيع ، إلا من أذن له الرحمن :

— « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة .. »(١) .

— « إن كل من السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً »(٢) .

— « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ما عملت ، وهم لا يظلمون »(٣) .

ومن ثم سيحاسب كل إنسان يوم القيامة ، على ما قام به من مهام الاستخلاف ، وما فرط منه فى جنب الله .

وبعبارة أخرى : سيحاسب الإنسان على مقدار ما تمثل ربه سبحانه فى نفسه ، وما ملأ به منه جوانب نفسه ، فاستجاب لمسئوليات الاستخلاف وأعبائه ، وابتعد — ما استطاع — عن مزالق الشيطان .

ومن ثم فالفكرة الإلهية فى الإسلام ، ليست تحليقاً فى آفاق من الخيال الجامح ، وإنما هى (انغماس) فى الواقع الإنسانى ، ارتقاء بهذا الواقع إلى المستوى الإنسانى الكريم ، الذى حدده رب العالمين لخليفته ، فى محكم كتابه ، وعلى لسان أنبيائه عليهم السلام ، وفى مقدمتهم خاتمهم صلى الله عليه وسلم .

فالفكرة الإلهية — فى الإسلام — على ذلك — أول الطريق إلى الكمال الإنسانى .

ذلك أن « الوثنية هوان يأتى من داخل النفس ، لا من خارج الحياة ، فكما يفرض المحزون كآبته على ما حوله ، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحاً جاثمة ، كذلك يفرض المرء الممسوخ صغار نفسه ، وغباء عقله ،

---

(١) قرآن كريم : الأنعام — ٦ : ٩٤ .
(٢) قرآن كريم : مريم — ١٩ : ٩٣ — ٩٥ .
(٣) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ١١١ .

على البيئة التى يحيا فيها ، فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء »(١) .

ومن ثم صححت الفكرة الإلهية الإسلامية علاقة الإنسان المسلم بالكون ، وصححت علاقته بمجتمعه ، وصححت علاقته بالعالم الخارجى . . فكان ما كان من دولة عظمى ، ومن حضارة رائعة ، ومن عدل وخير ، ومن احترام فرض نفسه على الأعداء قبل الأصدقاء ، طوال القرون الستة الأولى التى تلت البعثة المحمدية .. قبل أن تشوش الفكرة بفعل عوامل كثيرة ، فيصير المسلمون — نتيجة لذلك — على ما هم اليوم عليه ، من ضعف وتخلف وتفكك .. وهوان .

ومن ثم لم يكن غريباً أن يلاحظ المرحوم عباس العقاد ، العلاقة الإيجابية ، بين فهم الإسلام وتقدم المسلمين ، وبين الجهل بالإسلام وتخلفهم ، فهو يرى أن « موقف الإسلام من العلم — أو من العلوم عامة — يتبين من موقف علمائه المجتهدين ، فى كل حقبة من تاريخه ، الذى تعاقبت به الأجيال ، بين القوة والضعف ، والتقدم والتأخر ، والنشاط والجمود .

فقد مرت بالأمم الإسلامية عصور متخلفة ، جهلت فيها الإسلام نفسه ، فجهلت فضل العلم ، كما جهلت فضل الدين »(٢) .

وقد أوضح القرآن الكريم كيف أصلحت علاقة المسلم بالكون ، إثر تصحيح الفكرة الإلهية — فبين فى مواطن كثيرة منه ، أن هذا الكون ليس مجرد الأرض التى نعيش عليها ، ولا حتى القمر الذى نتطلع إليه وهو يبدد ظلمات الليل ، أو الشمس التى تشرق فى قلب سماء النهار ، فتنشر الدفء والحياة ، وإنما الكون أكبر من ذلك بكثير . . إنه الكون الواسع ، الذى

---

(١) محمد الغزالى : فقه السيرة — مطابع على بن على — الدوحة — قطر ، ص ١٧ .
(٢) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية — الطبعة الأولى — المؤتمر الإسلامى — دار القلم ، ص ٨٧ .

لا تزيد الكرة الأرضية، التى يعيش عليها الإنسان، على أن تكون مجرد ذرة من ذراته، كما سبق(١). إنه الكون الكبير ، وعلى قمته رب العرش سبحانه:

— « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته، ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمؤمنين رحيماً . تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعدلهم أجراً كريماً . يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً . ولا تطع الكافرين والمنافقين، ودع أذاهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا »(٢) .

وفى هذا الكون الكبير ، نرى الله وملائكته ، على قمة الهرم الكونى ، وفى القاع (الأرض) نرى الرسول (وغيره من الرسل) ، يدعو إلى الله، تسبيحاً له كما تفعل الملائكة ، فتستجيب جماعة من الناس ، فضلت جوار الله على كل جوار ، واستيقنت ألوهيته ، فالتفت من حوله ، ويشد التراب الأرضى الفانى جماعة أخرى ، فضلت اللذة العاجلة، وغرها السراب.. وإن اختلف أسلوب هذه الجماعة فى ممارسة هذه اللذة، بين كافر جاحد عمى قلبه ، وبين منافق ، يعرف ولكنه مصاب بانفصام الشخصية ، فهو يعيش بعقله مع العارفين ، وبفكره وعمله مع الجاهلين.

وأسلوب العارفين فى حياتهم واضح ، وأسلوب المنكرين فى حياتهم واضح.

الأول أسلوب فيه الثقة ، وفيه الفهم والوعى ، وفيه الوضوح.. وفيه الكمال ، المستمد من كمال الله ، الذى التفت حوله قلوب هؤلاء العارفين.

---

(١) ارجع إلى هامش ص ١١٣ من الكتاب .
(٢) قرآن كريم : الأحزاب — ٣٣ : ٤١ — ٤٨ .

والثانى اسلوب فيه العمى والتخبط،وفيه الجهل والجهالة..وفيه التناقض والاضطراب.. لبعده عن الصراط المستقيم.

والأسلوبان على طرفى نقيض ، ولابد أن يكونا على طرفى نقيض :

— « زين للناس حب الشهوات ، من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب.قل أؤنبئكم بخيرمن ذلكم : للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار،خالدين فيها،وأزواج مطهرة،ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد.الذين يقولون : ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا، وقنا عذاب النار.الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار.شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم »(١).

ونتيجة الأسلوبين ، على مستوى الحياة اليومية ، متناقضة أيضاً .

ففريق العارفين بالله ، والمؤمنين به..متماسك متحاب متآزر..يسود أعضاءه الرحمة والود ، وتقوم علاقته بالآخرين على العفو والترفع عن الصغائر ،كما تقوم على الصفح الجميل :

— « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ،وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً.إنها ساءت مستقراً ومقاماً. والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً.والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً..والذين لا يشهدون الزور ،

---

(١) قرآن كريم : آل عمران ـ ٣ : ١٤ — ١٨ .

وإذا مروا باللغو مروا كراماً . . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاماً . خالدين فيها ، حسنت مستقراً ومقاماً »(١) .

وعلى النقيض من هؤلاء تماماً . . فريق الكافرين والمنافقين ، الذين يجتمعون على الدنيا ، فلا يكادون يجتمعون حتى يتفرقوا، وهم حين يجتمعون وحين يتفرقون ، إنما يجتمعون ويتفرقون على الباطل وحده .

ومن ثم يعيش هذا الفريق دنياه شقياً ، شقاء ينذر بالشقاء الأكبر ، الذى سيعيشونه فى أخراهم ، التى نسوها ، فنسوا أنفسهم ، يوم نسوا الله ونسوها .

وبعبارة أخرى : يتسم فريق المؤمنين بحسن الخلق ، ومحاولة الاقتراب من الكمال الإلهى الذى ينشدونه .

ويتسم فريق الكفار والمنافقين بسوء الخلق ، وسوء العشرة ، والتخبط فى الحياة .

يعيش فريق المؤمنين سعيداً بالقرب من الله . . ولوبدا للعين شقياً .

ويعيش فريق الكفار والمنافقين شقياً بالبعد عن الله . . ولوبدا للعين سعيداً .

الاسلام . والآلهة الجدد :

فى غيبة عقيدة دينية سليمة ، وإله حقيقى كإله الإسلام، يسد فى النفس الإنسانية حاجتها إلى (إله) ، تلجأ إليه عند الشدة ، وتتوجه إليه بالشكر عند الفرحة . . وبعد خصومة طالت بين العلم والدين فى غرب أوربا ، انتهت إلى مواجهة صريحة بينهما ، انزوى الدين على أثرها فى ركن ضيق ، يزداد يوماً

---

(١) قرآن كريم : الفرقان ٢٥ : ٦٣ — ٧٦ .

بعد يوم ضيقاً، فى الوقت الذى استطاع العلم فيه اقتحام كل مجهول . . وبعد تحرر البلاد الإسلامية من الاستعمار ، بأنواعه المختلفة ، بعد امتداده فى بعضها إلى أكثر من ثلاثمائة سنة ، خرجت هذه البلاد منها متخلفة ، ينهشها الفقر والمرض ، ويحرقها الجهل ، وتسيطر على أبنائها الخرافة . . بعد ذلك كله ، ظهرت فى العالم اليوم آلهة جديدة .. كثيرة، خلقتها ظروف متباينة، ودفعت عبادها إلى عبادتها ظروف متناقضة، ولا يجمع بين هؤلاء العبادسوى شىء واحد ، هو كراهية الإسلام والمسلمين .

ولم يكن غريباً أن تجتمع الرأسمالية مع الشيوعية ، على ما بينهما من تناقض، وحروب باردة، وصراع دموى ، مستتر حيناً ، ومعلن حيناً آخر . . على حرب الإسلام .

إحداهما تحارب الأخرى ، والاثنتان تتفقان على حرب الإسلام بكل السبل .

بالحرب المسلحة يحرضون على الإسلام والمسلمين، وبإثارة الفتن والقلاقل، يعملون على إجهاض محاولات التقدم الإسلامى ، وبتحريض قادة المسلمين وحكامهم على المفكرين المسلمين، وعلى المنادين بالدعوة إلى النظام الإسلامى . . يعملون على خنقه . . . وناهيك عن حملات التبشير ، المسنودة بوكالات المخابرات، وناهيك عن . . إسرائيل ، التى تتلقى المساعدة من الشرق والغرب على السواء .

حملات مسعورة ، يجمع بين من يشنونها ، تخطيطاً وتنفيذاً ، شىء واحد ، هو (الوثنية)، مهما كانت صورتها، ويجمع بين من تشن عليهم شىء واحد ، هو الإيمان بالله الواحد القهار .

وقد تكون هذه الوثنية وثنية فكرية ، تشكك فى كل شىء ، كالحركة الوجودية ، أو لا تؤمن إلا بالعقل وحده ، كالفلسفة الجديدة ، التى يتزعمها

برتراند رسل (١٨٧٢ ١٩٧٥)... وقد تكون مذهبية، اقتصادية أو سياسة، تتخذ من القوة والتآمر وسيلة لتحقيق الهدف، كالشيوعية ... وقد تكون وطنية، لادينية وكفى، كما نرى فى سياسة نهرو، زعيم الهند السابق، وكمال أتاتورك، زعيم تركيا السابق، وغيرهما، فهم كثيرون، فى داخل العالم الإسلامى، وفى خارجه.

وقد تكون لهذه الوثنية الجديدة صلة بالصهيونية، وقد لا تكون.

والاحتمال الأكبر أن بنى إسرائيل وراء ذلك كله، بصورة أو بأخرى.

وربما كان أكبر دليل على وجودهم هنا وهناك، بصورة أو بأخرى، ما يحدث فى الحركة الماسونية.

وهى حركة عالمية، كان لها فى مصر أنصار، وهى تدعى التحرر من الأديان — كل الأديان — لتخلق — فى النهاية — كما تدعى — أخوة إنسانية.

هدف نبيل كما يبدو، لا يقل عن نبل هدف الحركة الشيوعية.

ولكنها — كالشيوعية — ما أن تجرد الإنسان من دينه، أو من قوميته، حتى تبدأ فى توجيهه حيثما تشاء.

فكأن عملية التجريد من الدين أو القومية، نوع من (غسيل المخ)، يتلوه زرع الفكر الجديد.

ويتدرج الناس فى الحركة الماسونية العالمية درجات، تصل إلى ثلاث وثلاثين درجة، تبدأ من الواحد، وهو الطالب المبتدئ، إلى ١٨، وهو الفارس الحكيم، إلى العارف، إلى القدوس، حتى الدرجة ٣٣، وهو (الرفيع)، وليس بعدها إلا (الملك)، وهى الدرجة

التى بلغها هيلاسلاسى(١)،وقد زعموا له أنه من سلالة رحبعام بن سليمان...
ولا يعلو تلك الدرجة إلا المحفل الكونى ، المؤلف من ١٢ ، هم الأسباط الاثنا عشر ، أو أقطاب الجلال، كما يسمون أنفسهم، ومكانهم تل أبيب...
وهم الذين يوجهون عالم العميان والحيوانات الناطقة من غير اليهود .

وعلاقة الفكر المادى والفوضوية والعبثية والفرويدية بالتوجيه اليهودى واضحة » (٢) .

ومن هؤلاء الملحدين ، سواء كانوا متصلين بالصهيونية العالمية ، أو لم يكونوا على اتصال بها — من بدأ حياته متديناً، ثم ساءت علاقته بربه ، مثل برتراند رسل ، وفردريك انجلز (١٨٢٠—١٨٩٥) ، شريك ماركس فى الشيوعية الجديدة ، ومنهم من عاش منذ طفولته ملحداً ، مثل نهرو ، ومنهم من كان متديناً ، ودفعه تدينه إلى التعصب ، ومن هنا كانت حربه للإسلام ،

---

(١) وليس غريبا والحالة هذه ، ما كان من تصرفات هيلا سلاسى ، قبل أن تطيح به قوات الانقلاب فى إثيوبيا ، وتقذف به إلى السجن ، حيث يموت بنفس الكأس التى طالما سقاها للمؤمنين والموحدين فى بلاده .. فقد جعل من أديس أبابا وكرا للصهيونية ، وكانت خططه وسياساته كاملة التنسيق مع قادة تل أبيب ، كما جعل من نفسه رأس حربة يوجهها إلى البلاد الإسلامية كلها ، سواء فى ذلك مؤامرات جنوب السودان ، أو المؤامرات المتكررة مع بعض العناصر فى مصر ، لإثارة القلاقل بها ، خاصة فى الصعيد .

وقد شهدت مصر من هذه القلاقل والفتن الكثير ، وكانت الحكومة المصرية غالبا ما تقدم رءوس بعض المسلمين إلى المشنقة ، إرضاء لحقده الأسود .

وتستطيع الرجوع إلى الدور الذى اضطلع به هيلاسلاسى وغيره فى محاربة الإسلام ، والتنصير ، متعاونا مع الهيئات الاستعمارية الدولية الأخرى المهتمة بالأمرين ، فى رسالة الدكتوراة القيمة التالية :

— عرفات عبد العزيز سليمان : رسالة الأزهر الثقافية فى بعض دول أفريقيا ، دراسة مقارنة — للحصول على درجة (دكتور فلسفة فى التربية) — كلية التربية — جامعة عين شمس (قسم التربية المقارنة والإدارة التعليمية) — مايو ١٩٧٢ ، ص ٢٠٤ وما بعدها ، خاصة ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٢) مصطفى محمود : من أسرار القرآن (مرجع سابق)، ص ٤٠ .

كاليهودى سيجموند فرويد ، صاحب نظرية التحليل النفسى الشهير ، والنصرانى هيلاسلاسى .

وهكذا يدعو إلى هذه الوثنية الجديدة : زعماء سياسيون ، لهم سلطانهم على النفوس ، بحكم ما فى أيديهم من سلطة ، وقادة فكر ، لهم سلطانهم أيضاً ، بما لفكرهم من بريق ... وتكون النتيجة ما يعيش فيه العالم اليوم من قلاقل واضطرابات ، وما يعانيه المسلمون المخلصون من اضطهادات ، فى داخل بلادهم وخارجها ، أفراداً وجماعات .

وأخطر هذه الحركات جميعاً اليوم ، هى الحركة الشيوعية ، بعد أن فضحت الماسونية نفسها ،وصار لهذه الحركة دول تحميها وتنشرها بكل السبل .

وخطر الشيوعية فى أنها تعتبر الدين « أداة للقهر الروحى » ، « ووسيلة لتقوية حكم المستغلين» (١) ، وتعمل على إثارة الدهماء على القادة والزعماء والمصلحين ، وتصفهم « بالطليعة ، وصناع التاريخ ، وبناة المستقبل ، لا عن صدق واقتناع ، ولكن عن انتهازية ، ليستعملوهم فى عمليات التهييج والتحريض» (٢) ، حتى يصلوا إلى السلطة ، فيسلبوهم كل شىء ، ويضعوهم فى خدمة الصهيونية (٣) .

ومن ثم نجد أن « الشيوعيين فى العالم بأسره ، يتعاونون مع يهود العالم ، فى دعم الشيوعية »(٤) .

---

(1) AFANASYEV, A. : Marxist Philosophy, A Popular Outline; Third Edition, Progress Publishers, Moscow. 1968. p. 341.

(٢) مصطفى محمود : لماذا رفضت الماركسية ، حوار مع خالد محيى الدين ـ المكتب المصرى الحديث ـ ١٩٧٦ ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(3) HITLER, ADOLF : My Struggle, Number II; The Paternester Library, 1937. p. 149.

(٤) على أدهم : حقيقة الشيوعية ـ تقدم جمال عبد الناصر ـ المكتب المصرى الحديث ، ص ١٦٠ .

وخطرها الأكبر، فى أنها تظهر للعالم الثالث — ومعظمه إسلامى — وسيلة لا غنى عنها للتقدم، ولاختصار المسافة بين التقدم والتخلف، مع أن العلاقة بين الشيوعية والتقدم، هى نفس العلاقة بين الرأسمالية والتقدم، فقد وصلت الصين إلى التقدم بالأسلوب الشيوعى، بينما وصلت إليه اليابان بالأسلوب الرأسمالى، وكلاهما بدأ من الصفر بعد الحرب العالمية الثانية.

ولكنها تبدو على هذا النحو، لأن حكام العالم الثالث — ومعظمهم وصلوا إلى الحكم إثر انقلابات عسكرية، لا بطريقة شرعية — يرون فى الشيوعية وسيلة لإحكام قبضتهم على الناس، سياسياً واقتصادياً — ومن ثم يكون الأسلوب الشيوعى، هو الأسلوب الأمثل أمامهم.

ولم يكن غريباً أن يعلق علماء المسلمين على المشانق فى البلاد الإسلامية(١)... بدعوى الرجعية أو التآمر أو التخريب أو الاتصال بجهات أجنبية أو.. أو.. زوراً وبهتاناً، وكل ذنبهم أنهم يدعون إلى الله، فى بلاد يراد لها أن تخلو للوثنية الجديدة.. وللأصنام الجدد.

ولكن الأقنعة سرعان ما تسقط، والأصنام سرعان ما تتحطم، ويفضح الطغاة بعضهم بعضاً.. ليبقى المؤمنون — بعد امتحانهم وابتلائهم — على نقائهم.

وتعود العيون تتطلع إلى المؤمنين.. وتعود العقول والقلوب فتنظر إلى الإسلام، واجدة فيه الأمل الذى ضيعه الطغيان.. تماماً كما تتطلع إليه اليوم أمم كثيرة، غير مسلمة، فى الشرق وفى الغرب.. لا ترى فى غيره سبيلا إلى الأمن والطمأنينة.. ورخاء العالم، بعد أن ملت السير فى طريق.. بنى إسرائيل.

---

(١) لعل أوضح الأمثلة على ذلك ما حدث فى مصر طوال عهد عبد الناصر، وما يحدث الآن فى عدن والصومال، وغيرها من بلاد الإسلام.

وللمسلم أن يفخر بإلهه

رأينا أن « أول ركن بنى عليه الإسلام، صقل العقول بصقال التوحيد » ، و« الاعتقاد بأن الله تبارك وتعالى منفرد بتصريف الأكوان، متوحد فى خلق الفواعل والأفعال »(١) ، وأن الشرك بالله – فى الإسلام – يعتبر رأس الخطايا :

– « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً »(٢) .

– « إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً »(٣) .

ورأينا أن توحيد الله – كعقيدة – يدفع الإنسان إلى حب الخير وفعله، وكراهية الشر وتجنبه ، وأنه – بالتالى – طريق الإنسان إلى الكمال ، وأنه « إذا امتلأ القلب بهذه العقيدة ، وكان ولاؤه لها وحدها ، أصبح صاحبه إنساناً فاضلا ، يسارع إلى فعل الخير، ويبتعد عن فعل الشر » ، « وإذا اتصف الفرد بمكارم الأخلاق ، وتشبه بأخلاق الله ، من الاتصاف بالكمالات ، والتنزه عن النقائص » ، « أصبح المجتمع كله مجتمعاً ذا خلقية دينية ، تسوده مكارم الأخلاق »(٤) .

---

(١) السيد أحمد الهاشمى : السعادة الأبدية، فى الشريعة الإسلامية – الطبعه الرابعة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٩٧٣ ، ص ٥ .

(٢) قرآن كريم : النساء – ٤ : ١١٦ .

(٣) قرآن كريم : النساء – ٤ : ٤٨ .

(٤) عبد الرحمن النجار : كلمات ، على طريق الإيمان – رقم (١٢٩) من (دراسات فى الإسلام) – يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة – السنة الحادية عشرة – ١٣٩١ هـ – ١٩٧٢ م ، ص ١٧ ، ١٨ .

كما رأينا أن لتوحيد الله انعكاساً خلقياً واضحاً ، فى الفرد والمجتمع على السواء ، « فالمطلب الحقيقى ، هو أن يخلق فى نفسه حالة العبودية الكاملة لله تعالى ، وهى التى خلقت العوالم من أجلها » . « فالعبودية هى أن يسلم المرء نفسه لله ، ويتوجه بكل مشاعره نحوه سبحانه ، حتى يصل إلى مقام من اللاشعور ، حيث يشعر بأنه أمام الله ، وأنه يرى خالقه وبارئه »(١) .

وهذا هو أساس خلق (الضمير) ، أو (الحافز الداخلى) ، أو (مراقبة الله فى السر والعلانية) ، فى الإسلام .

كما رأينا أن توحيد الله ، يعنى (مصالحة) للكون كله ، ودراسة له ، وفهماً لأسراره ، لأنه يعنى إيماناً بوحدة الكون ، وعلى رأسه رب الخلق سبحانه . ومن ثم فهو يعنى العلم والبحث العلمى ، بأوسع معنى للكلمتين .

ومن ثم لم يكن غريباً أن يكون الأمر بالقراءة هو شعار الإسلام ، كما تنزلت به أولى آيات القرآن ، على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون الآيات التى تشير إلى قدرة الله ، فى النفس ، وفى الأرض والسماء . . كثيرة كثيرة .

ومن ثم لم يكن غريباً — أيضاً — ذلك الاهتمام الواضح بالعقل ، فى الإسلام ، فهو لا يذكر فى القرآن الكريم « إلا فى مقام التعظيم ، والتنبيه إلى وجوب العمل به . والرجوع إليه ، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية ، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها ، مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى ، التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله ،

---

(١) وحيد الدين خان : حكمة الدين ، تفسير عناصر الإسلام ومقتضياته — ترجمة ظفر الإسلام خان — الطبعة الأولى — المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع — ١٩٧٣ ، ص ٣٣ .

وقبول الحجر عليه »(١) .

ولم يكن غريباً — كذلك — أن العقيدة الإسلامية « تكون — على خير تقدير — ناقصة، إذا لم تنسجم معه » ، « والقرآن لا يفتح المجال للبحث فحسب ، بل يشبع كذلك الغريزة العقلية فى الإنسان ويستميلها ، بل يدفعها ويلزمها أن تقوم بوظيفتها ، بما يضربه لها من أمثال ، وما يذكره من آيات »(٢) .

وليس التعويل على العقل فى أمر العقيدة والتكليف — فى الإسلام — بالأمر الغريب، على دين يقيم الإيمان به على أساس الحرية ، فالإنسان — فى الإسلام — حر، فى أن يكون (خليفة) لله فى الأرض ، متحملا مسئوليات ذلك الاستخلاف وتبعاته ، أو أن يسير على هواه ، مكتفياً فى حياته بإشباع شهواته وغرائزه ، كما تفعل الحيوانات العجماوات .

وتعتبر حرية الإنسان هذه، الثمرة الأولى والأساسية، من ثمار عبوديته لله ، وهى عبودية ، تحرر الإنسان تماماً من كل متاع دنيوى زائل ، مهما بدا للعين عظيماً .

فهى حرية حقيقية . . وبدونها : لا حرية .

و « الحرية هى نقطة البدء »(٣) فى التفكير الإسلامى — على حد تعبير الدكتور مصطفى محمود :

— « قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون

---

(١) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية (مرجع سابق) ، ص ٦٥ .

(٢) الدكتور محمود حب الله : « موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكرى » — الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة — مجموعة البحوث ، التى قدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية — جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله — مكتبة النهضة المصرية ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٣) مصطفى محمود : الماركسية والإسلام — دار المعارف بمصر — ١٩٧٥ ، ص ٠٧ .

ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين »(١) .

وهذه الحرية الإسلامية - فى نظره — هى الأساس ، الذى قامت — وتقوم — عليه الأخلاق فى المجتمع الإسلامى ، لأنه « أمام الخوف والإرهاب ، يمكننا أن نتصنع الفضيلة ، ولكن لا يمكننا أن نكون فضلاء حقيقة ، لأن الخوف يسلبنا الكرامة »(٢) .

* * *

فالمسلم أن يفخر بإلهه ، الذى ملأ جوانب نفسه ، فوقاه شر الانزلاق وراء آلهة مزيفة ، لا تملك لنفسها ولا لأتباعها نفعاً ولا ضراً .

وبفضل هذا الإله الأحد ، الفرد الصمد ، الذى « لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد »(٣)— تمكن المسلم من أن يصمد لإغراء الحضارة ، فلم تجرفه — فى العصور الوسطى — إلى موجة من الشك والإلحاد ، مثلما تمكن من أن يصمد لضغوط التخلف والفقر والحرمان ، فى العصر الحديث ، فلم يضل سبيله إلى الله . . وإلى التماسك . . وإلى التفاؤل والإشراق .

فالمسلم لم يتخل عنه إلهه فى وقت شدة ، ولم يتخل عنه فى وقت رخاء .

وبعيداً عن هذا الإله الواحد ، الفرد الصمد ، رب العالمين .. كما صوره الإسلام ، لم تستطع مجتمعات أخرى أن تتماسك ، أمام ضغوط التخلف ، كما لم تستطع أن تتماسك أمام إغراء الحضارة .

فالمجتمعات الغربية — على سبيل المثال — لم تستطع — فى العصور

---

(١) قرآن كريم : الكافرون — ١٠٩ : ١ — ٦.
(٢) مصطفى محمود : الماركسية والإسلام (المرجع الأسبق) ، ص ٧ .
(٣) قرآن كريم : الإخلاص — ١١٢ : ٣ ، ٤ .

الوسطى – أن تواصل إيمانها بإله يخذلها . . فيكون سبباً فى شقائها وحرمانها ، وما ينهال عليها من ظلم وظلام ... ورأت سبيل تقدمها هو أن تتحرر من هذا الإله . . فكانت موجة الإلحاد ، وكانت بداية التمرد على الكنيسة الكاثوليكية ، كما رأينا فى ختام الفصل الرابع(١) .

ثم كان تعديل صورة هذا الإله على يد مارتن لوثر .

وصنع الإنسان لإلهه ، على النحو الذى يريده ، فكرة إسرائيلية قديمة ، لها جذور وثنية ، وهى ليست من ابتداع مارتن لوثر .

ولم يستطع الإله القديم الذى صنعه رسل الكنيسة الكاثوليكية ، ولم يستطع الإله الجديد كما أراده مارتن لوثر – أن يحل مشكلة الإنسان الغربى .

لقد أدى إله الكنيسة الكاثوليكية ، ذو الأقانيم الثلاثة ، إلى تخلف وظلم وظلام .. وأدى إله مارتن لوثر إلى تقدم . . ولكنه أدى – أيضاً – إلى آلهة جديدة . . كثيرة .

صارت الشهوة – باسم الحرية – إلهاً فى الغرب الرأسمالى .

وصارت الدولة – باسم العدالة – وعلى رأسها فرد حاكم متسلط – إلهاً فى الشرق الشيوعى .

وأدى الإله الجديد . . فى الغرب والشرق على السواء ، إلى المأساة التى يعيشها الإنسان المعاصر . . رغم تقدمه واقتداره .

وتحت شعار الشهوة والحرية ، كانت آلهة متعددة فى الغرب : المال والنساء والسيطرة والنفوذ والأنانية والعلم والتكنولوجيا والفن والفلسفة . . صارت كلها آلهة لمن يعيشون فى الغرب . . ولم يعد للإله الواحد ، كما صوره

---

(١) ارجع إلى ص ٩٩ – ١٠٢ من الكتاب .

الإسلام ، وجود(١) . ولم يعد للإله ذى الأقانيم الثلاثة وجود ، وانحصرت رسالة الكنيسة فى إقامة مراسم الزواج والطلاق ، ودفن الموتى(٢) .

وتحت شعار الدولة والعدالة ، صارت آلهة متعددة فى الشرق الشيوعى : رئيس الدولة ، وسكرتير الحزب الشيوعى ، والرئيس فى العمل ، والمسئول فى الحزب ، وكل من له صلة بالسلطة ، من مباحث ومخابرات .. وصار الإله بشراً ، صنعته ظروفه . ولم يصنع هو من هذه الظروف شيئاً .

وصار القلق والإحساس بالضياع ، رغم الحرية والغنى ، أوضح سمات الحياة فى الغرب الرأسمالى !

وصار القلق وفقد الآدمية والامتهان .. أوضح سمات الحياة فى الشرق الشيوعى !

* * *

وعود إلى ديل كارنيجى .

وكنا قد أشرنا إليه فى الكتاب الأول من هذه السلسلة ، وإلى كتابيه المشهورين :

- دع القلق وابدأ الحياة .
- كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر فى الناس(٣) .

---

(١) الواقع أن هناك مدا إسلاميا واضحا في الغرب الآن ، رغم انعدام الدعاية للإسلام ، أو التعريف به ، إلا أننا نتحدث هنا حديثا عاما ، لا نشير فيه إلى الظواهر الفردية ، التى يقبل أصحابها على الإسلام ، رغم كثرتهم .

(٢) تكاد الكنيسة فى الغرب اليوم تنحصر فى هذه الوظائف ، ويكاد لا يؤمها من الغربيين للصلاة ، سوى كبار السن فقط .. وفى حالات نادرة .

(٣) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٢٧ ومابعدها .

ورأينا فى الكتاب الأول من السلسلة، أنه «يدعو إلى الإيمان بالله ، لا من أجل هذه الحقيقة الكونية ، ولا تحقيقاً لإنسانية الإنسان ، ولكن تجنباً للأمراض ، الناتجة عن القلق ، بسبب فقد هذا الإيمان»(١) .

ذلك أن كارنيجى يرى أن القلق ، يؤدى إلى «عسر الهضم ، وقرحة المعدة، واضطرابات القلب ، والأرق والصداع، وبعض أنواع الشلل»(٢) ، وأن «أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى ، والاستمساك بالدين والصلاة، كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبى، وأن تشفى أكثر من نصف الأمراض التى نشكوها» ، وأن «أطباء النفس ليسوا إلا وعاظاً من نوع جديد . فهم لا يحضوننا على الاستمساك بالدين ، توقياً لعذاب الجحيم فى الدار الآخرة ، وإنما يوصوننا بالدين توقياً للجحيم المنصوص عليه فى هذه الحياة الدنيا ، جحيم قرحات المعدة، والإنهيار العصبى، والجنون»(٣).

وقد رأينا أن المنهج الكارنيجى قد فشل فى محاربة القلق ، بينما نجح المنهج الإسلامى فى محاربته ، وذلك لأن «المنهج الإسلامى يضع الإنسان ، حيث يجب أن يوضع- مخلوقاً عقائدياً ، ذا رسالة سامية فى هذه الحياة ، بينما يعتبر المنهج الكارنيجى الإنسان حيواناً وكفى»(٤) .

دليل فشل المنهج الكارنيجى فى معالجة المشكلة، أن مجرد الوعظ ، ومحاولة الإقناع بشتى السبل ، وانتشار كتب كارنيجى، بعد الملايين التى وزعت منها - كل ذلك لم يقلل نسبة من يموتون نتيجة القلق (وعددهم مليونان فى تقديره)،

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٨ .
(٢) ديل كارنيجى : دع القلق ، وابدأ الحياة - تعريب عبد المنعم محمد الزيادى - الطبعة الخامسة - مؤسسة الخانجى بمصر ، ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٤) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٤٣ .

بل لقد زاد عددهم .. وكان من بين هذين المليونين نسبة كبيرة تموت انتحاراً ، حتى أن « عدد الأمريكيين الذين ينتحرون ، يفوق عدد الذين يموتون بالأمراض على اختلافها »(١) ـ وقد زادت هذه النسبة أيضاً .

ودليل نجاح المنهج الإسلامي ، أننا قلما نسمع عن حادثة انتحار فى العالم الإسلامى ، رغم الفقر والجهل والمرض ، ورغم الاستبداد السياسى بمختلف أنواعه ، ورغم تدخل الدول الكبرى ذاتها ـ كما سبق ـ لإجهاض الإسلام ، ووأد المسلمين .

وقد اعترف كارنيجى نفسه ، بشيء من ذلك ، فيما رواه من قصة رف س . بودلى ، عن حياته فى الصحراء ، وكيف تغلب على القلق ، من حياته بين بعض المسلمين فى الصحراء(٢) .

والمنهج الإسلامى يعالج القلق بربط الإنسان بالله ، كهدف كونى فى حد ذاته ، لا لعلاج القلق ، ومادام الإنسان قد ارتبط بالله ، فإنه لا بد أن يحس بالهدوء والراحة والطمأنينة ، غنياً كان أو فقيراً ، حاكماً كان أو محكوماً ، حراً كان أو سجيناً ، فالله معه حيث كان ، وهو إلى جواره راض ، وهو لا يرضى عن هذا الجوار بديلا .

وإذا أراد الإنسان أن يقترب من الله . . فأية قوة على هذه الأرض ـ يا ترى ـ تستطيع أن تبعده عنه ؟

بينما المنهج الكارنيجى يعالج القلق بربط الإنسان بالله لمصلحة . وقد يرى الإنسان مصلحته فى البعد عن الله ، وغالباً ما يراها كذلك فى عالم الغرب المادى ، ومن ثم (يتحور) الإله ، فيصير غير الإله . . حسب المصلحة الدنيوية .

---

(١) ديل كارنيجى : دع القلق وابدأ الحياة (المرجع الأسبق) ، ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

وبنفس هذا المنهج الفاسد ، يعالج كارنيجى قضية العلاقات الاجتماعية الناجحة ، فيدعو إلى التواضع(١)، وإلى الابتسامة(٢)،وإلى تجنب الجدل(٣)، وإلى التماس الأعذار للآخرين(٤) . . إلخ ، وهو لا يدعو إلى ذلك كله من منطلق (الاستخلاف) ، الذى يقيم عليه الإسلام نظرته إلى العلاقة بين الإنسان والله . . . بل من منطلق (المصلحة) وحدها .

ومن ثَمَّ يفشل المنهج الكارنيجى ، فى الوقت الذى ينجح فيه المنهج الإسلامى . . . فى علاج مشكلة الإنسان الاجتماعية أيضاً .

وقد حل الشرق الشيوعى مشكلة القلق هذه، بالإرهاق الجسدى،والقتل النفسى . . ومسخ الإنسان مسخاً ، بحيث لا يفكر إلا فى لقمة عيشه . . لليوم ، لا للغد . . وبالرقابة البوليسية الصارمة .

ولكن ذلك لم يحل المشكلة فى المجتمع الشيوعى ، فبعد سنوات من الحياة فى (جنة الشيوعية) ، لم يستطع الناس - رغم الإرهاب - أن يتحملوا ، ففروا فراراً جماعياً من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية مثلا ، عبر البوابة المشهورة فى برلين ، ولم يوقف الفرار سوى . . سور برلين الشهير . وغداً سيفكرون - حتماً - فى وسيلة للفرار - إن استطاعوا .

وفى أول النصف الثانى من سنة ١٩٧٦ ، سمعنا عن فرار طيار سوفيتى بطائرته إلى اليابان ، حيث طلب تسليمه إلى أمريكا ، كلاجئ سياسى، وبعدها بأيام ، فر آخر بطائرته إلى إيران ، لنفس الهدف .

---

(١) ديل كارنيجى : كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر فى الناس ؟ — تعريب عبد المنعم محمد الزيادى — الطبعة الثانية — مؤسسة الخانجى بمصر ؛ ص ١٧٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

وقبل هذين الطيارين، فر من استطاع الفرار: من (جنة الشيوعية) ... لعل أشهرهم أحد الكتاب الروس الكبار ، منذ سنوات قليلة ، وابنة الزعيم الشيوعى جوزيف ستالين ، الذى جثم على صدر الاتحاد السوفيتى قرابة ثلاثين عاماً ، مات على يده فيها بضعة ملايين ، فى السجون ، وفى سيبيريا .

والبقية تأتى .

وما حدث - ويحدث - فى الغرب والشرق على السواء، يدفع المسلم إلى أن يفخر بإلهه .. الذى يحس أنه - به - يعيش فى جنة ، رغم سوء ظروف الحياة فى بلاده .. فلا يضطر إلى أن يفر إلى بلد آخر .. كما يحدث فى المجتمعات الشيوعية، ولا إلى أن يفر إلى العالم الآخر ، كما يحدث فى الغرب(١) .

إنه - ومعه ربه سبحانه - قادر على أن يعيش فى كل المجتمعات ، وتحت أى النظم ، قادر على أن يشارك فى تطوير مجتمعه إلى الأفضل ، إن استطاع ، وإلا .. فلا تثريب عليه .

* * *

وللمسلم أن يفخر بإلهه ، الذى ارتاحت إليه نفسه ، وهدأ به قلبه ، لم يبعده التخلف والفقر عنه ، ولم يصرفه الغنى - إن اغتنى - عن عبادته وحده .

وإله المسلم ليس إلهه وحده .. وإلا لكان إلهاً ضعيفاً بضعفه ، قوياً بقوته ، غنياً بغناه ، فقيراً بفقره ...

إنه إلهه وإله الناس جميعاً .. وهو إله البشر والملائكة والجن والحيوانات ، والسموات والأرض ، والدنيا والآخرة .

---

(١) هناك مسلمون - لظروف عديدة - هاجروا - ويهاجرون - إلى بلاد الغرب المتقدمة ، إلا أن معظمهم لا يتركون إلههم وراءهم فى بلادهم ... بل إنهم يهاجرون به ومعه وله ... ويزدادون فى الهجرة تمسكا به ... ويصيرون من الدعاة إليه .

وهو إله عادل ، لا يظلم أحداً ، يعطى المال لمن سعى إليه وعمل ، ويعطى القوة والغلبة لمن أعد لها .. ولا يعطى الخاملين .

فكل شيء عنده بمقدار .

وهذا الإله العظيم .. بهذه الصورة العظيمة .. هو الذى يملأ كيان المسلم ، ولا يرضى به بديلا .

وهذا الإله العظيم .. بهذه الصورة العظيمة .. يملأ كيان كل من يعرفه ، فإن كان مسلماً زاد إيمانه به ، فى عصر التقدم العلمى الذى نعيشه اليوم .. وإن كان غير مسلم .. أقبل على الإسلام .

فالماديون يرون - بالتقدم العلمى - أن الكون خلق نفسه بنفسه .. ولكن الانتظام العجيب فى الكون من حولنا ، يدل على أن وراء هذا الكون ، ووراء انتظامه ، على هذا النحو الغريب ، قوة عظمى ، إذ « لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق ، وفى هذه الحال ، سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله .. وهكذا ننتهى إلى التسليم بوجود (الإله) ، ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيباً : إلهاً غيبياً ومادياً فى آن واحد !! » ، على حد تعبير عالم الطبيعة الأمريكى (جورج إيرل ديفيس) . ولذلك يتم العالم الأمريكى كلامه قائلا : « إننى أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى ، وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ومديره ومدبره ، بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات »(١) .

* * *

وللمسلم أن يفخر بإلهه ، الذى - على الرغم من قدرته وعظمته تلك - يتصل به اتصالا مباشراً ، وعن قرب ، فى كل لحظة من لحظات ليله ونهاره ،

---

(١) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى (مرجع سابق) ، ص ٧١ — نقلا عن :
— The Evidence of God, p. 71.

يقظته ومنامه ، صحته ومرضه ، غناه وفقره . . . دون ماحاجة إلى وساطة ، مهما كان هذا الوسيط ، وهـذا هو محمد رسول الله ، أكرم خلق الله على الله ، يقو لها واضحة وصريحة ، لمهجة قلبه فاطمة :

— « يا فاطمة بنت محمد : لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

ومن ثم قطع كل طريق على المتاجرين بالدين ، المتاجرين بالله ، فلم يعد عنده مجال لمغفرة تمنح ، ولا لجنة تباع ، وصار المجال للتقوى والعمل الصالح وحدهما .

والتقوى هى الأساس ، الذى تقوم عليه الأخلاق الطيبة ، والفكر الصائب المستقيم .

والعمل الصالح أساس آخر ، تقوم عليه حياة المجتمعات ، يكمل الأساس الأول .

وأقام الحياة – من ثم – فى ظله – على التعمير ، والاستمتاع بالحياة الدنيا ، فى إطار من المودة والمحبة والتعاطف . . والإيثار ، لا على الأنانية ، والجشع ، والتكالب على هذه الحياة الدنيا .

ذلك أن الحياة — برغم اهتمام هذا الإله العظيم بها — لا تعدو أن تكون مجرد معبر . . إلى الحياة الآخرة ، التى لا تنتهى بموت ، كما هى الحياة الدنيا . . وإنما هى الخلود . . فى الجنة ، أو فى النار .

وإذا تعارضت الحياتان . . فالأولوية — عنده — للآخرة ، ومايتعرض له المؤمن فى هـذه الحياة الدنيا من خير أو شر ، إنما هو ابتلاء من الله . . مجرد ابتلاء ، يعرف به الصالح من الطالح ، والمؤمن من المنافق :

— « ولنبلونكم بشىء من الخوف و الجوع ، ونقص من الأموال

والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون »(١) .

— « كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون »(٢) .

— « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم »(٣) .

فطريق الابتلاء ، بالخير أو بالشر ، هو الطريق إلى الله العظيم ، الذى يجب أن يفخر به المسلم . . وليس الطريق إليه عبر إنسان آخر ، يتوسط بينه وبينه . . مهما كان قدر هذا الإنسان .

وهو طريق فيه سمو بالإنسان ، وارتقاء به ، وإعلاء لقدره . . . وهو طريق فيه عدالة مطلقة ، ومساواة تامة . . بين خلق الله جميعاً ، لا فضل لأحد منهم على الآخر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح :

— « يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير »(٤) .

* * *

وبمنطق الابتلاء هذا ، الذى جعله الله سبحانه وتعالى (المحك) فى التفضيل ، والمقياس للتقوى والإيمان . . لم يكن مولد الرسول الكريم بداية التقويم الإسلامى ، كما كان مولد غيره تقويم بعض غير المسلمين . . وإنما كانت (الهجرة) هى بداية هذا التقويم ، « لأن العقائد إنما تقاس بالشدائد ،

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٥٥ — ١٥٧ .
(٢) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٣٥ .
(٣) قرآن كريم : محمد — ٤٧ : ٣١ .
(٤) قرآن كريم : الحجرات — ٤٩ : ١٣ .

ولا تقاس بالفوز والغلب : كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة ، أما النفس التى تعتقد حقاً ، ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقاً ، فهى النفس التى تؤمن فى الشدة ، وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء »(١).

ومن ثم كان اختيار الهجرة ، دون مولد الرسول ، أو فتح مكة ، أو غزوة بدر . . أو غيرها وغيرها ، وهو كثير فى الإسلام . . أدل على روح الإسلام ، وفهم المسلمين لهذه الروح ، من أى اختيار آخر .

ومن يتتبع تاريخ الإسلام كله ، يجده ابتلاء فى ابتلاء ، ابتلاء قبل الهجرة للرسول وللقلة التى آمنت به . . حتى تترك هذا الدين ، أو تساوم عليه . . وابتلاء بعد الهجرة فى بدر وأحد وغيرهما . . وابتلاء بعد فتح مكة ، ولو أنه ابتلاء من نوع جديد : أيدمرون من أتعبوهم كما يفعل المنتصرون فى كل زمان ومكان ، أم يعفون ويصفحون ، كما يفعل من ذاقوا حلاوة الاتصال بالله ؟ .

وبعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ، كانت ألوان الابتلاء عديدة : كان مجرد انتقاله هذا ابتلاء ، أفقد — حتى عمر — صوابه ، ولم يعد المسلمون إلى صوابهم إلا بكلمة واحدة قالها أبو بكر ، وهو ينعى إليهم فقد محمد :

— « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت » .

وهنا فقط ، أفاق المسلمون ، ووضعوا محمداً كما يجب أن يوضع : مجرد بشر . . رسول .

ثم كانت الردة ابتلاء . . وكان الفرس والروم وحروبها ابتلاء . . .

ثم كان النصر على هؤلاء جميعاً ابتلاء .

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد (مرجع سابق) ، ص ١٧٩ .

وقد نجح المسلمون فى كل ابتلاء من هذه الابتلاءات ... حتى شادوا للإسلام دولة عظمى . . بعد سنوات قليلة من البعثة المحمدية .

وكان هناك ابتلاء من نوع جديد ، كان مقدراً لمدبريه أن يقتلع الإسلام من القلوب . . وهو ابتلاء الفتنة ، التى أعقبت مقتل عثمان بن عفان ، ثالث الخلفاء الراشدين ، وتولى على بن أبى طالب ، رابع الخلفاء الراشدين ، رضى الله عنهما .

وقد انتهت هذه الفتنة بانتصار الأمويين ، المدبرين للفتنة ، والمستفيدين منها . . وهزيمة على وأبنائه ، الذين حيكت الفتنة ضدهم . .

وبدأت الفتنة بمواجهة بين على ، الخليفة ، ومعاوية ، واليه على الشام ... وسببها فى الظاهر مقتل عثمان ، قريب معاوية ، ولا يشك الكثيرون فى أن معاوية نفسه كان من مدبريها ، إشعالا للفتنة . . وانتهت بالمواجهة بين الحسين بن على ، حفيد رسول الله وحبيبه ، وبين يزيد بن معاوية . . حفيد هند ، زوج أبى سفيان ، التى قتلت حمزة ، وأكلت كبده . . ضيقاً به وبالإسلام ، فى أيام الجهاد الإسلامى الأولى .

وكان الموقف الحاسم بين الحسين ويزيد ، « موقف الأريحية الصراح ، فى مواجهة موقف المنفعة الصراح . وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه ، وأبعد غايتيه ، فانتصر الحسين بأشرف ما فى النفس الإنسانية من غيرة على الحق ، وكراهة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما فى النفس الإنسانية من جشع ومراء ، وخنوع لصغار المتع والأهواء »(١) .

انتصر الحسين . . فى الابتلاء العظيم ، لأن فكرة (الله) قد انتصرت

---

(١) عباس محمود العقاد : أبو الشهداء ، الحسين بن على — العدد رقم (٤) من « كتاب الهلال » — سبتمبر ١٩٥١ ، ص ١٦ .

فى قلبه .. فدفعته إلى أن يخوض معركة ، كان يعلم مقدماً أنه خاسرها .. بعدد جنوده القليلين ... فى مواجهة جيش الدولة الضخم . . لأنه كان لابد أن يخرج على دولة أقيمت على العنصرية ، وعلى الظلم والطغيان ، وعلى الفساد والإفساد .

وقد خرج على الدولة ، وقال كلمته فيها . . ثم كان ما كان .

أدى ما عليه ، وكان هذا ما يبغيه .

وابتلى ، فصبر فى الابتلاء . . ثم نال ما كان يتمنى من شهادة .

وهذا الذى تعرض له الحسين ،فى صدر الدولة الإسلامية ، تعرض — ويتعرض له — كل من فهم الإسلام حق فهمه ، وارتبط بالله حق الارتباط . . فرخصت عنده الدنيا .

تعرض له أئمة الإسلام الأربعة ، مع اختلاف بينهم فى حجم (الضغوط) التى تعرضوا لها ، والثمن الذى دفعوه فيها . وتعرض له قبلهم آل بيت الرسول، مع الحسين فى محنته ، ومنهم شباب وغلمان . . صغار ، ومنهم نساء . . محجبات .

وتعرض — ويتعرض — له المسلمون فى الهند . . وفى الاتحاد السوفيتى . . وفى الحبشة . . وفى غيرها من البلاد التى تحارب الإسلام ، وحكوماتها غير مسلمة .

وتعرض — ويتعرض له — المسلمون فى بلاد إسلامية ، تحكمها حكومات إسلامية بالاسم فقط ، لكنها — بالفعل — إما حكومات حمراء ، تعلن الحرب — صراحة — على الإسلام ، وإما حكومات فاشية ، تتخذ من الإسلام وسيلة لتحقيق أهدافها الخاصة ، فتطلب من رجال الإسلام أن يفسروه على هواها . . وإلا كان الهلاك .

وتعرض له المسلمون فى مصرنا الحبيبة ، ابتداء من جمال الدين الأفغانى فى القرن الماضى ، وانتهاء بمؤلف : فى ظلال القرآن — العدالة الاجتماعية فى الإسلام — هذا الدين — التصوير الفنى فى القرآن — مشاهد القيامة فى القرآن ..

وغيرها ، من معجزات الفكر والأدب الإسلاميين .. فى القرن العشرين .
وكان كل ذنب الشهيد سيدقطب ، أنه كان يقول كلاماً ، يجد له إلى القلوب طريقاً . . فكان إماأن يثبت على الإيمان قلوباً ، كانت قد آمنت من قبل ، وإما أن يهدى إلى الإيمان قلوباً ، لم تكن قد آمنت بعد .

وهى جريمة شنعاء ، فى حق أعداء الله ، وأعداء الإسلام .

ولكن هؤلاء المسلمين وهؤلاء ، استراحوا إلى جنب الله . . فى دنياهم ، رغم العذاب الذى لا قوة فى هذه الحياة الدنيا .. ثم استراحوا إلى جوار الله فى النهاية .. فى أخراهم ، التى انتقلوا إليها ، إما بسيف آثم ، أو إثر عذاب غير محتمل .. أو حين وافتهم المنية . بلا سيف ولا عذاب .

هذا ، فى الوقت الذى عاش فيه جلادوهم ، أعداء الله وأعداؤهم ، حياتهم الدنيا ، فى هم وضيق وقلق قاتل . . رغم ما كان تحت أيديهم وأرجلهم من سلطات ، ومن أموال ، ومن قدرة على الإعزاز والإذلال ، ثم انتقل من انتقل منهم عن هذه الدار الدنيا ، غير مأسوف عليه . . إلى حيث يلقى جزاءه على ماقدمت يداه فى دنياه ، من فساد وإفساد ، ومن وقوف فى طريق مسيرة الحق ، وفى طريق دعوتها إلى الله :

— «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون»(١) .

---

(١) قرآن كريم : هود — ١١ : ١٨ — ٢٣ .

— « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم : جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره قبله العذاب . ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار ، هى مولاكم ، وبئس المصير »(١) .

فللمسلم أن يفخر بإلهه ، الذى جعل الابتلاء سنة حياته . . ومع ذلك أعانه على هذا الابتلاء ، فوجد فيها الرضا والسعادة . . ثم جزاه عليه يوم القيامة جنة وسروراً — فى الوقت الذى عذب فيه الأغنياء والأقوياء من الكفار والمنافقين فى الدنيا ، بالقلق والضيق وعدم الطمأنينة . . وفى الآخرة بالنار ، خالدين فيها أبدا .

* * *

وللمسلم أن يفخر بإلهه . . الذى خلقه ، وعرف ما فيه من نقاط قوة ، ونقاط ضعف . . فأقر نقاط ضعفه تلك . . واعتبر الإنسان بطبيعته خطاء . . . ولكنه وعده — متى تاب توبة صادقة — بقبول توبته ، بشرط ألا يكون بالله مشركا :

— « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً »(٢) .

— « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله

(١) قرآن كريم : الحديد — ٥٧ : ١١ — ١٥ .
(٢) قرآن كريم : النساء — ٤ : ٤٨ .

غفور رحيم »(١) .

وكل ما يشترطه سبحانه فى توبة التائب ، هو أن تكون توبة صادقة ، يتبعها صالح العمل :

— « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى »(٢) .

وألا تكون هذه التوبة قرب انتهاء الأجل، حيث يفرغ الإنسان من دنياه ، وما هو معرض له فيها من ابتلاء :

— « وليست التوبة للذين يعملون السيئات، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً »(٣) .

ولم يغلق الله سبحانه الباب عليه ، فيقنط من رحمته ، لجريمة ارتكبها ، أو ارتكبها أحد آبائه ، أو ارتكبها أبو الخلق آدم .. لا ذنب له فيها(٤) :

— « قل : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم »(٥) .

ولم يفتح سبحانه باب التوبة على مصراعيه، بمجرد اعتراف بالخطيئة ، لا يتبعه عمل صالح ، بحجة أن الله أنزل (ابنه) إلى الأرض ، وقدمه قرباناً ، يفتدى به الإنسانية من خطأ أبيها، يوم استدرجه إبليس، فعصى أمر ربه، واقترب

---

(١) قرآن كريم : المائدة — ٥ : ٣٩ .
(٢) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ٨٢ .
(٣) قرآن كريم : النساء — ٤ : ١٨ .
(٤) وذلك واضح وضوحا تاما فى أسفار التوراة (العهد القديم) المختلفة .
(٥) قرآن كريم : الزمر — ٣٩ : ٥٣ .

من الشجرة التى نهاه ربه عن الاقتراب منها(١) .

وما ذنب من كان موجوداً من بنى آدم، قبل أن ينزل ابن الله (كما يدعون)، ويفتدى الناس به ؟

ثم ما أسوأها من نتيجة خلقية ، حين يعرف الإنسان أن خطاياه كلها مغفورة .. فما الذى يدعوه للتقوى وصالح العمل بعدها ؟

إنها تكون شريعة الغاب .. وقد كانت ، ولا تزال كائنة هناك .. فى غرب أوربا وأمريكا ، حيث الشهوات تسير ، والقوى يأكل الضعيف .

ولكن إله المسلمين — سبحانه — إله غفور رحيم ، لا يعاقب أحداً بغير جريرة ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وحاسب عليها .. فهو إله عادل أيضاً .

فما استحق إله أن يعبد ، إذا أقام شرعته على غير العدل ، ولا استحق هذا الإله أن يفتخر به عبده .. ومن ثم كان المسلم أولى الناس بأن يفخر بإلهه .. الغفور الرحيم .. الشديد العقاب ذى الطول .. والعادل قبل هذا وبعده .

* * *

وللمسلم — أخيراً — أن يفخر بإلهه .. وعدل هذا الإله العظيم ، فهو لم يعلن الحرب على واحد من بنى آدم بلا جريرة ، وهو لم يختص برحمته فريقاً من الناس دون فريق، وإنما كل الناس عنده سواسية، كأسنان المشط، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى وصالح العمل .

وبهذا المقياس الصادق وحده ، قسم الناس إلى مؤمنين ، ومنافقين ، وكتابيين ، وكفار .

---

(١) وذلك واضح وضوحا تاما فى الأناجيل (العهد الجديد) المختلفة . (وابن الله) فى هذه الأناجيل — كما سبق فى الفصل الرابع ، هو المسيح عيسى بن مريم ، الذى برأه الله مما قالوا ، كما نجاه من الصلب ، الذى يدعونه ، وإنما صلب الخائن يهوذا ، الذى أراد تسليمه إلى أعدائه .

وجعل — بمقياس عدله — المنافقين ، وهم محسوبون على الإسلام ، فى وضع أشد سوءاً ، وأسوأ عاقبة ، من الكفار ، لأنهم — عملياً — يعرفون الحق ، ولكنهم لا يلتزمون به ، بل يعملون على هدمه ، متواطئين فى ذلك مع كل أعداء الله، من كفار وكتابيين .. ومن ثم يكون كيدهم للإسلام أشد، لأنهم يعدون بالنسبة للإسلام والمسلمين بمثابة (طابور خامس) .

ولكن الله يرد كيدهم إلى نحورهم .. كما يرد كيد هؤلاء وأولئك :

— « إذا جاءك المنافقون ، قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون »(١) .

— « ألم تر إلى الذين نافقوا ، يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة ، أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »(٢) .

---

(١) قرآن كريم : المنافقون — ٦٣ : ١ — ٤ .
(٢) قرآن كريم : الحشر — ٥٩ : ١١ — ١٤ .

ثم جعل - بمقياس عدله - المؤمنين من الكتابيين .. مؤمنين بالله، مستحقين الجنة ، كالمؤمنين من المسلمين سواء بسواء .

ومن ثم فضل النصارى على اليهود ، لا لأن هؤلاء أتباع موسى، وأولئك أتباع عيسى، عليهما السلام ، فكلاهما نبي من أنبياء الله وأحبائه .. ولكن لأن هؤلاء غلاظ القلوب منذ كانوا ، كما تصفهم توراتهم ، وكما يصفهم الإنجيل .. وكما يصفهم القرآن الكريم .. وأولئك فيهم رقة ورهبانية .. وتواضع ولين :

— « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين »(١) .

ولكن : ما بال المؤلهين للمسيح من هؤلاء النصارى، والمدعين — رغم ذلك — أنهم أبناء الله وأحباؤه .. بعد أن افتداهم المسيح ، فعلق نفسه على الصليب تكفيراً عن خطاياهم — كما يدعون ؟

يقول عنهم الإله العادل :

— « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً؟ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير . وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل : فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء،

---

(١) قرآن كريم : المائدة — ٥ : ٨٢ ، ٨٣ .

ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير» (١) .

إنهم - فى هذه الحالة - يبتعدون عن الله سبحانه ، فيكونون مستحقين لعقابه .. تماماً كما ابتعد اليهود عن الله فاستحقوا عقابه ، وتماماً كما ابتعد المنافقون — وهم فى الأصل مسلمون — فاستحقوا عقابه .

إنه عــدل الله المطلق . . . «ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى»(٢) .

وهو عدل، لا يقسم الناس فيه إلى فئات ، بحسب الجنس أو المولد . . وإنما يستقبلهم — يوم يلقونه — أفراداً ، ليحاسب كلا منهم على ماقدمت يداه ، مهما كانت الفئة التى ينتمى إليها ، والجنس الذى ينتمى إليه ، والوالدان اللذان تربى فى أحضانهما .

---

(١) قرآن كريم : المائدة — ٥ : ١٧ ، ١٨ .
(٢) قرآن كريم : النجم — ٥٣ : ٣٨ — ٤١ .

المراجع

(أ) المراجع العربية :

١ — القمص ابراهيم جبرة : المولود من الآب — رقم (١) من (المكتبة اللاهوتية) — مكتبة المحبة بالقاهرة — ١٩٧٥ .

٢ — القمص ابراهيم جبرة : المولود من العذراء — رقم (٢) من (المكتبة اللاهوتية) — مكتبة المحبة بالقاهرة - ١٩٧٥ .

٣ — ابراهيم خليل أحمد : محمد ، فى التوراة والإنجيل والقرآن — الطبعة الثالثة - مكتبة الوعى العربى (بدون تاريخ) .

٤ — أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — الطبعة العاشرة — مطابع على بن على — الدوحة -١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

٥ — الدكتور أحمد الشرباصى : الدين والمجتمع - المطبعة العربية -١٩٧٠ .

٦ — الدكتور أحمد عروة : الإسلام فى مفترق الطرق — نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان أمين — دار الشروق — ١٩٧٥ .

٧ — الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام — (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر - ١٩٦٨ .

٨ — البهى الخولى : الاشتراكية فى المجتمع الإسلامى ، بين النظرية والتطبيق — مكتبة وهبة (بدون تاريخ) .

٩ — ألدوميلى : العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى — نقله إلى العربية : الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى - قام بمراجعته على الأصل الفرنسى : الدكتور حسين فورى - جامعة الدول العربية - الإدارة الثقافية - الطبعة الأولى - دار القلم - ١٩٦٢ .

١٠ — السيد أحمد الهاشمى : السعادة الأبدية ، فى الشريعة الإسلامية — الطبعة الرابعة — دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان — ١٩٧٣ .

١١ — السيد محمود أبو الفيض المنوفى : أصالة العلم ، وانحراف العلماء — رقم (٤) من (موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم) — دار نهضة مصر للطبع والنشر — ١٩٦٩ .

١٢ — العهد الجديد .

١٣ — العهد القديم .

١٤ — إنجيل برنابا (ترجمه من الانكليزية : الدكتور خليل سعادة — طبع على نفقة مطبعة المنار ، لصاحبها : السيد محمد رشيد رضا — مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده — القاهرة — ١٩٥٨ .

١٥ — أنيس منصور : طلع البدر علينا — الطبعة الأولى — المكتب المصرى الحديث — ١٩٧٥ .

١٦ — برتامووريس باركر : أقرب الجيران إلى الأرض — ترجمة ادوار رياض — رقم (١٥) من (مجموعة الكتب العلمية المبسطة) — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٩٧٠ .

١٧ — برتامووريس باركر : ما وراء المجموعة الشمسية — ترجمة ادوار رياض — رقم (١٤) من (مجموعة الكتب العلمية المبسطة) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٩ .

١٨ — خليل طاهر : الأديان والإنسان ، منذ مهبط آدم ، حتى : اليهودية — المسيحية — الإسلام — قدم له وراجعه : فضيلة الإمام الأكبر ، الشيخ عبد الحليم محمود — دار الفكر والفن — ١٩٧٦ .

١٩ — ديل كارنيجى : دع القلق،وابدأ الحياة - تعريب عبد المنعم محمد الزيادى - الطبعة الخامسة - مؤسسة الخانجى بمصر (بدون تاريخ) .

٢٠ — ديل كارنيجى : كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر فى الناس ؟ — تعريب عبد المنعم محمد الزيادى - الطبعة الثانية - مؤسسة الخانجى بمصر (بدون تاريخ) .

٢١ — رينيه ديكارت : مقال عن المنهج - ترجمة محمود محمد الخضيرى - الطبعة الثانية - راجعها وقدم لها : الدكتور محمد مصطفى حلمى - من(روائع الفكر الإنسانى) - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - ١٩٦٨ .

٢٢ — دكتور سعيد على غنيمة : أساسيات فى الجيولوجيا : الكونية - المعادن والصخور - الطبيعية - الطبعة الأولى - الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية - ١٩٧٥.

٢٣ — دكتور سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى — عالم الكتب - ١٩٧٠ .

٢٤ — دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم — عالم الكتب — ١٩٧٢.

٢٥ — دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الإسلامية ، وأثرها فى الحضارة الأوربية — الطبعة الأولى — دار النهضة العربية — ١٩٦٣.

٢٦ — سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن — دار الشروق (بدون تاريخ) .

٢٧ — سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام - الطبعة الثالثة — — مطبعة دار الكتاب العربى — ١٩٥٢.

٢٨ — سيد قطب : هذا الدين - دار الشروق (بدون تاريخ) .

٢٩ — صالح عبدالعزيز : تطور النظرية التربوية -(دراسات فى التربية - الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر - ١٩٦٤ .

٣٠ — دكتور صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ، والفكر الفرويدى ، أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سجمند فرويد - الطبعة الأولى - عالم الكتب - ١٩٧٠ .

٣١ — الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) :القرآن وقضايا الإنسان - الطبعة الأولى - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٧٢ .

٣٢ — عباس محمود العقاد : أبو الشهداء ، الحسين بن على - العدد رقم (٤) من (كتاب الهلال) — سبتمبر ١٩٥١ .

٣٣ — عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية - الطبعة الأولى - المؤتمر الإسلامى - دار القلم (بدون تاريخ) .

٣٤ — عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين - رقم (٣٠٩) من (المكتبة الثقافية) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٤ .

٣٥ — عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الإسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ .

٣٦ — عباس محمود العقاد : الله - مطابع الأهرام التجارية - ١٩٧٢ .

٣٧ عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام ، وأباطيل خصومه - دار الإسلام - القاهرة - ١٩٥٧ .

٣٨ — عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق -الطبعة الثانية- دار المعارف بمصر - ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

٣٩ — عباس محمود العقاد : عبقرية محمد - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .

٤٠ — عباس محمود العقاد : مايقال عن الإسلام - دار الهلال - ١٩٧٠ .

٤١ — الدكتور عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى - الطبعة الثانية - مطبعة لجنة البيان العربى - ١٩٦٦ .

٤٢ — دكتور عبد الحميد أحمد أمين : الطاقة الذرية ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها - رقم (٦) من (الألف كتاب) - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٦ .

٤٣ — عبد الرحمن النجار : كلمات ، على طريق الإيمان — رقم (١٢٩) من (دراسات فى الإسلام) - يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة - السنة الحادية عشرة - ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م .

٤٤ — عبد الرزاق نوفل : الله والعلم الحديث - الناشرون العرب - دار الشعب — ١٩٧١ .

٤٥ — دكتور عبد الغنى عبود : الأيدلوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة - الطبعة الأولى — دار الفكر العربى - ١٩٧٦ .

٤٦ - دكتور عبد الغنى عبود : «التربية ومحو الأمية الأيديولوجية» - تعليم الجماهير - مجلة متخصصة ، تصدر عن : الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار - السنة الثالثة - العدد السادس - مايو ١٩٧٦ .

٤٧ — دكتور عبد الغنى عبود : التعليم مدى الحياة فى الإسلام - ورقة تقدمت بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إلى : المؤتمر الدولى للتنمية وتعليم الكبار ، المنعقد فى دار السلام - تنزانيا ، فى ٢١ - ٢٦ يونيو ١٩٧٦ (استنسل) .

٤٨ — دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية ، والأيديولوجيات

المعاصرة – الكتاب الأول من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) – الطبعة الأولى – دار الفكر العربى – ١٩٧٦ .

٤٩ ـــ الدكتور عبد الغنى عبود : «مع الخليل إبراهيم فى يقينه» – منبر الإسلام – يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – السنة ٣٢ – العدد ١٢ – ذو الحجة ١٣٩٤ – ديسمبر ١٩٧٤ .

٥٠ ـــ عبد الكريم الخطيب : الله ذاتاً وموضوعاً (قضية الألوهية ... بين الفلسفة والدين) – الطبعة الثانية – دار الفكر العربى – ١٩٧١ .

٥١ ـــ عبد الكريم الخطيب : الله والإنسان (قضية الألوهية ... بين الفلسفة والدين) – الطبعة الثانية – دار الفكر العربى – ١٩٧١ .

٥٢ ـــ عبد الكريم الخطيب : اليهود فى القرآن – الطبعة الأولى – دار الشروق – ١٩٧٤ .

٥٣ ـــ عرفات عبد العزيز سليمان : رسالة الأزهر الثقافية فى بعض دول أفريقيا ، دراسة مقارنة – للحصول على درجة (دكتور فلسفة فى التربية) – كلية التربية جامعة عين شمس (قسم التربية المقارنة والإدارة التعليمية) – مايو ١٩٧٢ .

٥٤ ـــ على أدهم : حقيقة الشيوعية – تقديم جمال عبد الناصر – المكتب المصرى الحديث (بدون تاريخ) .

٥٥ ـــ الأنبا غريغوريوس : أنت المسيح ، ابن الله الحى – رقم (١٩) من (سلسلة المباحث اللاهوتية والعقائدية) – مطبعة دار العالم العربى – فبراير ١٩٧٥ .

٥٦ ـــ قرآن كريم .

٥٧ ـــ ك ر . تيلر : الكيمياء والإنسان – ترجمة الدكتور حسن عابدين –

مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل – رقم (٤٤١) من (الألف كتاب) – دار الهلال – ١٩٦٢ .

٥٨ — كتاب البراهين العقلية والعلمية، فى صحة الديانة المسيحية – تأليف وجمع القائمقام ترتن ، من فرقة المهندسين – ترجمة حبيب أفندى سعيد – الطبعة الثانية – مطبعة النيل المسيحية بالمناخ بمصر – ١٩٢٥ .

٥٩ — كانتون هارتلى جراتان : البحث عن المعرفة ، بحث تاريخى فى تعلم الراشدين — ترجمة عثمان نويه – تقديم صلاح دسوقى – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٦٢ .

٦٠ — محمد الغزالى : فقه السيرة – مطابع على بن على – الدوحة – قطر (بدون تاريخ) .

٦١ — محمد عبدالله السمان : مفتريات اليونسكو على الإسلام – الطبعة الأولى – المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٧٦ .

٦٢ — دكتور محمد قدرى لطفى : دراسات فى نظم التعليم – مكتبة مصر (بدون تاريخ) .

٦٣ — محمد قطب : منهج التربية الإسلامية – الطبعة الثانية – دار الشروق (بدون تاريخ) .

٦٤ — محمد مجدى مرجان : الله واحد أم ثالوث – دار النهضة العربية (بدون تاريخ) .

٦٥ — الدكتور محمود حب الله : « موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكرى » – الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة – مجموعة البحوث ، التى قدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية – جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله – مكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ) .

٦٦ — مصطفى محمود : الماركسية والإسلام – دار المعارف بمصر – ١٩٧٥ .

٦٧ — مصطفى محمود : رأيت الله – دار المعارف بمصر – ١٩٧٦ .

٦٨ — مصطفى محمود : لماذا رفضت الماركسية ، حوار مع خالد محي الدين – المكتب المصرى الحديث – ١٩٧٦ .

٦٩ — مصطفى محمود : من أسرار القرآن – العدد (١١٥) من (كتاب اليوم) – مؤسسه أخبار اليوم بالقاهرة – سبتمبر ١٩٧٦ .

٧٠ — مقدمة العلامة ابن خلدون – المكتبة التجـــارية الـكبرى (بدون تاريخ) .

٧١ — الدكتور هارى نيكولز هولمز : قصة الكيمياء ، من خلال أنبوبة الاختبار – ترجمة الدكتور ألفونس رياض ، والدكتور عبد العظيم عباس – مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل – رقم (٢٨٤) من (الألف كتاب) – مكتبة نهضة مصر ومطبعتها (بدون تاريخ) .

٧٢ — وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، مدخل علمى إلى الإيمان – ترجمة ظفر الإسلام خان – مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين – الطبعة الخامسة – المختار الإسلامى – ١٩٧٤ .

٧٣ — وحيد الدين خان : حكمة الدين ، تفسير عناصر الإسلام ومقتضياته – ترجمة ظفر الإسلام خان – الطبعة الأولى – المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٧٣ .

٧٤ — الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) – دار المعارف بمصر – ١٩٦٢ .

٧٥ — الدكتور يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة – الطبعة الثانية – مكتبة وهبة – ١٩٧٣ .

(ب) المراجع الأجنبية :

1. AFANASYEV, A. : Marxist Philosophy, A Popul Outline; Third Edition, Poogress Publishers, Moscow, 1968.

2. BENIANS, SYLVIA : From Renaissance to Revolution, A Study of the Influence of Political Development of Europe; Methuen& Co., Ltd., London, 1923.

3. HITLER, ADOLF : My Struggle, Number II; The Paternoster Library, 1937.

4. LEOPOLD, A. STRAKER and the Editors of LIFE : The Desert; LIFE Nature Library, Time - Life International (Nederland), N.V., 1963.

5. SAGAN, CARL and LEONARD JONATHAN NORTON and the Editors of LIFE : Planets; LIFE – Science library, Time – Life International (Nederland), N.V., 1967.

6. SMITH, WILLIAM A. : Ancient Education; Philosophical Library, New-York, 1955.

7. THE WORLD BOOK ENCYCLOPAEDIA, Modern Comprehensive Pictorial, Volume 5, E; The Quarrie Corporation, Chicago (Without Date).

صدر من السلسلة

١ — العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة — فى يونيو ١٩٧٦ .

٢ — الله والإنسان المعاصر — فى فبراير ١٩٧٧ .

الكتاب التالى من السلسلة

الإسلام والكون

يصدر فى منتصف هذا العام بإذن الله .

رقم الإيداع ٢٣٦٩ / ١٩٧٧

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ شارع نجيب الريحاني - ت ٤٨٦ ٤٧

فى هــذا الكتاب

إنها تكون شريعة الغاب .. وقد كانت ، ولا تزال كائنة هناك .. فى غرب أوربا وأمريكا ، حيث الشهوات تسير ، والقوى يأكل الضعيف .

ولكن إله المسلمين ــ سبحانه ــ إله غفور رحيم ، لا يعاقب أحداً بغير جريرة ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وحاسب عليها .. فهو إله عادل أيضاً .

فما استحق إله أن يعبد ، إذا أقام شرعته على غير العدل ، ولا استحق هذا الإله أن يفتخر به عبده .. ومن ثم كان المسلم أولى الناس بأن يفخر بإلهه .. الغفور الرحيم .. الشديد العقاب ذى الطول .. والعادل قبل هذا وبعده .

* * *

وللمسلم ــ أخيراً ــ أن يفخر بإلهه .. وعدل هذا الإله العظيم ، فهو لم يعلن الحرب على واحد من بنى آدم بلا جريرة ، وهو لم يختص برحمته فريقاً من الناس دون فريق ، وإنما كل الناس عنده سواسية ، كأسنان المشط ، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى وصالح العمل .

وبهذا المقياس الصادق وحده ، قسم الناس إلى مؤمنين ، ومنافقين ، وكتابيين ، وكفار .

الكتاب التـالى من السلسلة : الاسلام والكون